أحمر أسود (١)

بداية الهداية

لمعرفة دينك
بأسلوب سهل وميسر

الحديث

شرح ثلاثين حديثًا من كلام رسول الله ﷺ

لأم تميم

الدكتورة/ عزة محمد

دار ابن رجب

دار الفوائد

بسم الله الرحمن الرحيم

من إصدارات المؤلفة

- الفقه الميسر (٦ أجزاء) - مكتبة مكة - القاهرة - طنطا (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).

- أمراض القلوب - خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).

- التعليقات الجلية على العقيدة السفارينية - للإمام السفاريني (٢ جزء)- دار الآثار - القاهرة (ت: ٠٢٢٥١٢٥١٨٤).

- مجموعة بداية الهداية – صدر منها كتاب: (أصول الإيمان-تفسير القرآن-فقه الحلال والحرام - الحديث) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى (صدر منه الجزء الأول) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢).

- الدرر البهية - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة - مكتبة/ دار ابن الجوزي بالقاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- المحجة البيضاء في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١ - ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).

- بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين - مكتبة آل ياسر - القاهرة (ت: ٠١١١٢٤٥٨٤٤٤).

الموقع الرسمي لأم تميم

omtameem.com

الصفحة الرسمية لأم تميم على الفيسبوك

https://www.facebook.com/Om.Tameem.Dr.Azza.Mohamed

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فهذا هو الجزء الرابع من مجموعة «بداية الهداية» أفردته لحديث رسول الله ﷺ، فقد جمعت فيه ثلاثين حديثًا من الأحاديث التي رويت بأسانيد صحيحة عن نبينا ﷺ ثم قمت بشرحها بأسلوب سهل وميسر، معتمدة على شروح كتب الحديث المختلفة، سواء كانت شروح لصحيح البخاري أو لصحيح مسلم، أو لغيرهما، مع الحرص الشديد والعناية التامة بالالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة، والتقاط العبارات التي توافق عقيدتهم -ولله الحمد والمنة-

وقد تميز الكتاب بتقسيمه إلى أربعة أبواب:

الباب الأول: يحوي جملة من أهم أعمال القلوب.

والثاني: جملة من أعمال الجوارح.

والثالث: جملة من أحاديث البر والصلة.

والرابع: جملة من أحاديث الأخلاق والمعاملات.

لكي يعلم الطالب من البداية أن الدين جاء من قبل الله تعالى، وقد أراد سبحانه لعباده الخير والصلاح والفلاح، في الدنيا والآخرة، ولن يتحقق ذلك بأعمال الجوارح وحسب، أو ما يطلق عليه العامة العبادات، فالدين معاملات، وأخلاق، وعبادات: قلبية وبدنية، ومن لم يسير إلى الله بهذا الفهم فقد ضل سواء السبيل، وأصبح من الخاسرين، فقد شوه صورة الإسلام بسيئ عمله، يصلي ويصوم، ويحج، ثم يهدم سائر أصول الدين، والله المستعان.

وختامًا: أسألك، يا الله، بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، أن تبارك في هذا العمل وتضع له القبول عند المسلمين؛ -رجالًا ونساء- وتجعله سببًا في صلاح قلوبنا وأخلاقنا، ومعاملاتنا، وعبادتنا، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن شاهين

٢٦ شوال ١٤٤٠هـ

٢٩ يونيه ٢٠١٩م

الباب الأول

جملة من أهم أعمال القلوب

١- الإخلاص

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

الشرح

قد دل الحديث، على أن معيار تصحيح الأعمال وقبولها عند الله هو الإخلاص، أي: يقصد بالعبادة -قول أو فعل- الله وحده، لا يريد جزاء، ولا أجر على عمله، ولا ثناء، ولا سمعة، ولا شهرة، ولا غير ذلك، وقد أمر الله تعالى بالإخلاص في كتابه العزيز في أكثر من موضع، منه:

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾. [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة].

وقال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٠)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) وغيره.

فمن عمل عملًا يريد به الثواب من الله، والثناء والمدح من الناس أو غير ذلك من المصالح الدنيوية، فإن الله لا يقبله.

قوله ﷺ: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى»:

دليل على أن العمل بغير نية غير جائز، فلابد من النية في جميع الأعمال والأقوال، وكل ما يتقرب به إلى الله ﷻ.

مثال: إنسان اغتسل بالماء للنظافة، لا ينوي بذلك رفع الحدث (الجنابة- الحيض أو النفاس- الاحتلام)، فلا يجزئه هذا الغُسل للصلاة، ولا تصح طهارته، فإذا أراد الاغتسال لرفع الحدث لابد من النية قبل العمل، والنية محلها القلب ولا يجوز أن يتلفظ بها كأن يقول: نويت رفع الحدث أو غير ذلك.

وهذا في جميع الأعمال والأقوال: صلاة- صيام- فزكاة- صدقة- بر والدين- صلة الأرحام- كفالة اليتيم-نصيحة المسلمين- إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، لابد أن تكون النية قبل العمل وتكون لوجه الله حتى يقبل العمل[1].

وقوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ»:

أي: من كانت نيته وقصده من الهجرة إلى الله تعالى ورسوله ﷺ رضا

---

(١) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لابن العباس القرطبي (١٢/ ٥١)، وإكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض (٥/ ٢٨٤) وغيرهما.

الله بهذا العمل، والرغبة في عظيم الأجر والثواب، فهجرته مقبولة عند الله، وثوابها عليه سبحانه وتعالى[١].

وقوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»:

أي: ومن هجر من أجل مصلحة دنيوية يحصلها من مال، أو جاه، أو غير ذلك، أو كانت نيته من الهجرة الزواج من امرأة، أو غير ذلك، أو لم يرد بالهجرة وجه الله تعالى، فإنه لا ثواب له[٢].

من ثمرات الإخلاص:

١- قبول الأعمال والأقوال والدعاء.

٢- يحرر المرء من عبودية غير الله، ومن ثَمَّ يشعر المخلص براحة وطمأنينة في قلبه.

٣- يُفرج شدائد الإنسان في الدنيا والآخرة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[العنكبوت].

٤- رضا الله ﷻ عن العبد، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

٥- مضاعفة الثواب عن العمل، وإن كان قليلًا، قال رسول الله ﷺ: «مَا

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري (١/ ٤٦)، والمفهم (١٢/ ٥١)، وشرح الأربعين النووية (ص: ١٩) لجمع من العلماء.

(٢) انظر: المصدر السابق.

تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»[(١)].

٦- المخلص يصرف الله تعالى عن قلبه الحسد والحقد، والغل، فلا يبقى في قلبه هذه الأمراض الذميمة.

قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثُ خِصَالٍ، لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[(٢)].

٧- يبلغ المخلص درجات عالية في الجنة بصدق نيته وعزمه، وإن لم يتيسر له العمل، ومن أدلة ذلك قوله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[(٣)(٤)].

وغير ذلك من فوائد الإخلاص، أسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٤).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٨٠٠، ١٦٧٨٤)، وابن ماجه (٣٠٤٧)، والدارمي (٢٣٤)، والبزار في مسنده (٢٨٩٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤) وابن أبي عاصم في السنة (٨٩٨)، وصححه العلامة الألباني في «تخريج كتاب السنة» (١٠٨٧)، والصحيحة (٤٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٩) وغيره.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢/ ١٤) بزيادة وتصرف.

٢- حب الله ورسوله ﷺ وحب المؤمنين

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[(١)].

الشرح

حلاوة الإيمان في القلب عبارة عن زيادة نوره وخشوعه ورضاه عن ربه تبارك وتعالى، واستلذاذ الطاعة وسهولتها عليه، وتحمل المشاق في الدين.

قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»:

أول الأسباب الثلاث التي بها يجد العبد حلاوة الإيمان: أن تكون أعظم محبة في قلبه هي محبة الله ورسوله، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها.

ومحبة العبد لله، تكون باستقامته في طاعته، والتزامه أوامره ونواهيه في كل شيء، ولهذا قال بعضهم: المحبة مواطأة[(٢)] القلب على ما يُرضي الرب، ولذلك كانت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه تعالى، وكمال الخضوع له،

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

(٢) مواطأة القلب: أي: موافقة القلب.

والخوف منه[١].

فمحبة الله تعالى «هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذةٌ ولا نعيمٌ، ولا فلاح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمُهُ أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقدت شَمَّه، واللسان إذا فقد نُطقَه.

بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئهِ وإلهِهِ الحق أعظمُ من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة»[٢]، أي: قلبه حي.

أما محبة رسول الله ﷺ، فتكون باتباعه والتزام سنته في الظاهر والباطن، ونصرة دينه، وترك البدع -صغيرة كانت أم كبيرة- إذا كانت في الدين، ومعرفة ذلك يحتاج إلى علم يميز به المسلم بين البدعة والسُّنَّة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وهذا من أشرف وأعظم ثمرات اتباع رسول الله ﷺ، ألا وهي حب الله تعالى للعبد، ومغفرة ذنوبه، وأي شيء أعظم من هذا؟!

وقوله ﷺ: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»:

هذا حث من رسول الله ﷺ للمؤمنين على التحاب في الله، لأن الله ﷻ

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٢٧٨)، والجواب الكافي لابن القيم (ص ٢٨٣)، والكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني (١/ ١٠١).

(٢) ما بين القوسين من الجواب الكافي (٢٨٢-٢٨٣).

جعل المؤمنين أخوة؛ قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن محبته تعالى ومحبة رسوله، محبة أهل ملته، فلا تحصل حلاوة الإيمان إلا أن تكون المحبة خالصة لله، أي: يحب العبد أخاه المؤمن لأنه يحب الله ورسوله، ويطيع الله ورسوله من أجل ذلك أحبه، ليس من أجل الأغراض الدنيوية، والمصالح البشرية، فمن أحب أحدًا لشيء من ذلك، لن تدوم محبته، وستنقطع بانقطاع أسبابها، ولن يفوز بثواب الحب في الله[١].

وقوله ﷺ: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»:

لما علم المؤمن محاسن الإسلام، ودخل قلبه نور الإيمان، علم هذه النعمة العظيمة التي أنعم الله عليها به، بعد أن خلّصه من رذائل الجهل والكفر والعصيان، فكره أن يعود للكفر مرة أخرى بعد أن منَّ اللهُ عليه وأنقذه منه، ككراهية أن يلقى في النار، وهذا من تمام إيمان المرء، ومعرفة النعم وشكرها[٢].

من ثمرات حب الله تعالى ورسوله والمؤمنين:

١ - أن تكون مع النبي ﷺ في الجنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**».

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني (١/ ١٤٩)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٦٨).

(٢) انظر: المفهم (١/ ١٣٣)، ومرقاة المفاتيح (١/ ٧٥).

قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»(١).

٢- أن يقف المرء يوم القيامة في ظل عرش الرحمن، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟**(٢) **الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**»(٣).

٣- أعظم ثمرات الحب في الله، أن يحبك الله تبارك وتعالى، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) جلالي: أي: بعظمتي، كان حب بعضهم لبعض في الدنيا من أجل الله، لا من أجل الدنيا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

٣- الخوف

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ فَقَالَ: **عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»** قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ: غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ[(١)].

والخنين: هو الشديد من البكاء.

الشرح

أي: لم أر خيرًا أكثر مما رأيته اليوم في الجنة، ولا شرًّا أكثر مما رأيته اليوم في النار، ولو رأيتم وعلمتم ما رأيته اليوم، وقبل اليوم، لأشفقتم إشفاقًا بليغًا، ولقل ضحككم، وكثر بكاؤكم[(٢)].

فالنبي ﷺ يعلم من أمور الآخرة-وشدة أهوالها، ومما أُعِدّ في النار من عذابها وأنكالها، ومما أُعِد في الجنة من نعيمها وثوابها- ما لم يعلمه غيره.

ولذلك كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، قليل الضحك، فكان أكثر ضحكه تبسمًا[(٣)].

وكلما زاد علم العبد، وفهمه عن ربه، ازداد خوفًا وخشية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢١، ٦٤٨٦)، ومسلم (١٣٤-٢٣٥٩) واللفظ له.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ١٢٥) ط. دار الحديث.

(٣) انظر: المفهم (١٩/ ٨٢) بتصرف يسير.

فيجب على كل عاقل أن يخاف من الله ﷻ، ويحذر من أهوال يوم القيامة، فيعمل ما أُمر به، وينتهي عما نُهي عنه، مستعينًا بالله القوي العزيز على ذلك، فالإنسان خلق ضعيفًا، ولولا فضل الله عليه ما استطاع أن يقوم بعمل واحد مما افترضه الله عليه، فضلًا عن أن يقوم بأداء كل ما افترض عليه، وترك كل ما نُهي عنه.

قال الإمام ابن رجب رحمه الله: إنَّ الله خلق الخلق؛ ليعرفوه، ويعبدوه، ويخشوه، ويخافوه، ونصب لهم الأدلّة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال، ووصف لهم شدّة عذابه ودار عقابه الّتي أعدّها لمن عصاه ليتّقوه بصالح الأعمال، ولهذا كرّر سبحانه وتعالى في كتابه ذكر النّار وما أعدّه فيها لأعدائه من العذاب والنّكال، وما احتوت عليه من الزّقّوم والضّريع والحميم والسّلاسل والأغلال، إلى غير ذلك ممّا فيها من العظائم والأهوال، ودعا عباده بذلك إلى خشيته وتقواه، والمسارعة إلى امتثال ما يأمر به ويحبّه ويرضاه، واجتناب ما ينهى عنه ويكرهه ويأباه، فمن تأمّل الكتاب الكريم وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب، وكذلك السّنة الصّحيحة التي هي مفسّرة ومبيّنة لمعاني الكتاب، وكذلك سير السّلف الصّالح أهل العلم والإيمان من الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان، من تأمّلها علم أحوال القوم وما كانوا عليه من الخوف والخشية والإخبات، وأنّ ذلك هو الّذي رقّاهم إلى تلك الأحوال الشّريفة والمقامات السّنيّات، من شدّة الاجتهاد في الطّاعات والانكفاف عن دقائق

المكروهات فضلًا عن المحرّمات[١].

أهون أهل النار عذابًا، من يلبس في قدميه نعلان من نار يغلي منهما دماغه، من شدة النار.

فعن النعمان بن بشير ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»[٢].

شراكان: والشراك هو أحد سيور النعل، وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم.

والمرجل: قِدر (إناء) معروف سواء كان من حديد أو نحاس[٣].

نماذج من خوف الصالحين من الله تبارك وتعالى:

اعلم، أن كل معصية يرتكبها العبد- ويستمر على فعلها- بسبب ضعف الخوف من الله في قلبه، لو خاف الله كما يجب، ما استطاع أن يقبل على المعاصي، فضلًا عن أن يستمر فيها.

وانظر إلى حال الصالحين الذين خافوا مقام ربهم، ففعلوا الواجبات، وتركوا المحرمات، واجتهدوا في فعل المستحبات من الأعمال التي لم يفترضها الله عليهم ومع ذلك كانوا في شدة الخوف من لقاء الله، والوقف بين يديه يوم القيامة للحساب.

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب (ص ٧، ٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦١، ٦٥٦٢)، ومسلم (٣٦٤-٢١٣) واللفظ له.

(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ٨٨) بتصرف يسير.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كَانَ رَأْسُ عُمَرَ عَلَى فَخِذِي فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ لِي: ضَعْ رَأْسِي، قَالَ: فَوَضَعْتُهُ عَلَى الأَرْضِ، فَقَالَ: «وَيْلِي وَوَيْلُ أُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي»(١).

وبكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرضه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أَمَا إِنِّي لَا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنْ أَبْكِي عَلَى بُعْدِ سَفَرِي وَقِلَّةِ زَادِي، وَإِنِّي أَمْسَيْتُ فِي صُعُودٍ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْخَذُ بِي»(٢).

وعن الحسن البصريّ في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء] . قال: «الخوف الدّائم في القلب»(٣).

وعن أبي سُليمان الداراني قال: «من حَسُن ظنُّه بالله ممن لا يخاف الله، فهو مخدوع»(٤).

ومن فوائد الخوف من الله تبارك وتعالى:

١- دخول الجنة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[النازعات].

٢- الانكفاف عن المعاصي، فالخوف والخشية يمنعان العبد من

(١) شرح السنة للبغوي (١٤/ ٣٧٣).

(٢) المصد لاسابق.

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص:٥١).

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٩/ ٢٧٢).

التجرأ على معاصي الله، فمن أعظم البلاء الذي أصاب المسلمين في هذا الزمان ضعف الخوف من الله، ولذلك تجد جميع أنواع المعاصي ترتكب في ديار المسلمين ومن كثير من المسلمين، ولو خافوا من الله ما عصوه. «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك**».

٣- دليل على قوة الإيمان، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ» فَقَالَ بِهِ هَكَذَا[1].

٤- الخوف يحث العبد على الاجتهاد في الأعمال، والحرص على الإخلاص فيها، لا يريد مقابل لعمله من الناس: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان].

٥- الوقوف في ظل عرش الرحمن يوم القيامة: قال رسول الله ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ بِظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**». إلى أن قال: «**وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

٤- الرجاء

عن أبي أيوب خالد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ؛ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

الشرح

ليس في الحديث تهوين للمنهمكين في الذنوب، كما يتوهم البعض، فالأنبياء جميعًا، إنما بعثوا لهداية الخلق، وردعهم عن المعاصي، ولكن الحديث فيه بيان لعفو الله تعالى، وتجاوزه عن المذنبين؛ ليرغبوا في التوبة.

فالمعنى المراد من الحديث -كما قال أهل العلم:- هو أن الله تعالى كما أحب أن يعطي المحسنين، أحب أن يتجاوز عن المسيئين، وقد دل على ذلك بعض أسمائه الحسنى، كالغفار، والحليم، والتواب، والعفو، وهذا من فضل الله العظيم، وكرمه، وإحسانه لعباده.

واعلم أن للتوبة ثلاثة شروط: ترك المعصية، والندم على ما فات، والعزم على عدم العود إلى المعاصي، وإن كان الذنب بين العبد وبين عبد مثله، فعليه أن يرد له حقه، إن كان هذا الحق ماديًّا -من مال، عقار، أرض- وما أشبه ذلك.

وإن كان الحق معنويًّا -كالغيبة، والسب والقذف- فعليه أن يتحلل منه،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٨)، وغيره.

بأن يطلب ممن أساء إليه أن يسامحه وأن يعفو عنه[١].

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**»[٢].

وقد رغب الله ﷻ عباده في الاستغفار والتوبة، وعدم القنوط واليأس من رحمته، فإذا استغفر العبد بنية صادقة، وتاب من الذنب، غفر الله له مهما كانت ذنوبه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، وغيرها من الآيات.

وقد جاء في السُّنة المطهرة، أحاديث كثيرة تدل على سعة رحمة الله تعالى، منها:

حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الصحيحين، قال: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري (٩/ ٣٦٧)، وشرح مسلم للقاضي عياض (٨/ ٢٤٧)، وشرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص ١٣٩)، والتيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٤) وغيره.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١).

ومعنى السبيُّ: لغة: الأسر، وخُص بالنساء.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وعن ابن عمر الخطاب رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ»(٣).

من ثمرات الرجاء:

١ - عدم اليأس من رحمة الله ﷻ، فإذا كثرت ذنوب العبد، وتراكمت عليه وأراد أن يتوب، فقد يثبطه الشيطان عن التوبة ويذكره بكثرة ذنوبه، فيدفع هذه الوساوس الشيطانية برجائه في ربه العفو الغفور لمن تاب وأناب وعمل صالحًا، فسير إلى الله بالخوف والرجاء معًا.

قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[١].

٢- الرجاء بضوابطه الصحيحة – وهي التوبة من الذنوب والاجتهاد في الطاعة مع حسن الظن بالله- يعين العبد على الشكر، وهو أعظم الأعمال.

٣- يوجب للعبد مزيد من معرفة الله ومحبته، فيحبه الله ويرضى عنه، وغير ذلك.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٥) وغيره.

٥- الصبر

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»(١).

الشرح

الابتلاء يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، واستعمل كلمة الابتلاء في المصايب والشر أكثر.

فالله ﷻ يبتلي العباد بالخير؛ لينظر يكفرون ويجحدون النعم، أم يشكرون ويطيعون المنعم عليه -سبحانه وتعالى- كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وأثنى الله على عبده ونبيه أيوب عليه السلام بصبره ورضاه بما ابتُلي به من الأمراض، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

فالابتلاء بالمحن والكوارث والمصائب يحتاج إلى صبر، والابتلاء بالخيرات والنعم يحتاج إلى شكر، وهذا حال المؤمن كما جاء في الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ**

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٨)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الحافظ ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٢/ ١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠)، و«صحيح الترغيب» (٣٤٠٧).

ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[١].

قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»:

أي: إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرًا ابتلاه بالمصائب ليطهره بها من الذنوب، وليرفع درجته في الجنة، وهذا الحديث ومثله بشرى عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الإنسان لابد أن يصيبه ألم بسبب مرض، أو هَم، أو موت عزيز، أو غير ذلك[٢].

وقوله: «فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ».

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

فمن صبر على الابتلاء فله أجر الصابرين، فالأمراض والأوجاع والآلام -بدنية كانت أو نفسية- تكفر ذنوب العبد وخطاياه، وقد يرفع بها في الجنة درجات ما كان ليصل إليها بعمله.

وأما من جزع وتسخط، فليس له إلا الجزع، وثبات الوزر والإثم عليه لتسخطه، فالجزع لا يدفع بلاء ولا يرفعه.

أقسام الصبر:

واعلم أن الصبر ليس قاصرًا على البلاء فقط، إنما الصبر أقسام، وهي:

١- الصبر على طاعة الله ﷻ حتى يؤديها كما أمر الله، وعلى هدي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٨/ ٣٤١، ٣٤٢)، والتنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (١/ ٥٠٢)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٠٨).

رسول الله ﷺ، أي: كما كان يفعلها النبي ﷺ، بغير زيادة، ولا نقص.

٢- الصبر عن المعاصي والمحرمات، فلا يقع فيها، وذلك مخالفة النفس ومنعها من الشهوات المحرمة.

٣- الصبر على أقدار الله ﷻ المؤلمة، فلا يسخط ولا يجزع، كما بيّنا وهذه الأقسام من الصبر تجب على كل مسلم بإجماع علماء الأمة وأئمتها[١].

أهمية الصبر:

قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا، قرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]، وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لابد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى صبر.

كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: عليكم بالعلم، فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يُعرف اللهُ ويُعبد، وبه يُمجد اللهُ ويُوحد، يرفع اللهُ بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادةً وأئمة يهتدون بهم وينتمون إلى رأيهم.

---

(١) راجع: حكم المسألة في التحفة العراقية لابن تيمية (ص: ٥٤).

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولابد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر][1].

من فوائد الصبر:

١- ضبط النفس، ومنعها من السَّأم والملل، عند القيام بأعمال تتطلب الاستمرار والمثابرة، وقد يراها المستعجل مدة طويلة.

٢- منع النفس من الطمع في المحرمات، والاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

٣- ضبط النفس ومنعها من العجلة والطيش والغضب، وحملها على الحلم، والذي يعين على ذلك معرفة أضرار الغضب، وفوائد الحلم، وحسبك في ذلك قول رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ، يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»[2].

والفرق بين الحلم والأناة:

الحلم: أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، فإذا حصل ما يغضبه -وهو قادر على العقاب-، فإنه يحلم، ولا يعاجل المسيء بالعقوبة.

وأما الأناة: فهي التأني في الأمور، وعدم العجلة، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل ويحكم على الشيء قبل أن يتأنى فيه وينظر.

٤- حصول الثواب للعبد الصابر بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٣٩)، والتحفة العراقية (ص: ٥٤، ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧).

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها.

فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد، ولا عد، ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر، ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور[١].

٥- محبة الله ومعيته ورعاية الخاصة للصابرين، ومحبة الناس، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، وغير ذلك.

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٦/ ٢٤٧١، ٢٤٧٢)، وشرح رياض الصالحين لابن عثيمين وابن باز (٣/ ٥٧٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٢٠).

٦- المراقبة

قال رسول الله ﷺ: لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان؟ قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

الشرح

ففسر رسول الله ﷺ الإحسان في العبادة بما معناه الإخلاص ومراقبة الله في السر والعلانية، وهذا حث على غاية الخضوع والتذلل والإخلاص.

والآيات التي تحث العبد على المراقبة كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأحزاب]، وهذه الآيات وغيرها تجعل الكيس الذكي يراقب الله تعالى، لعلمه أن الله يعلم جميع أقواله وأفعاله، واعتقاداته، وسره وعلانيته.

قال الإمام النووي رحمه الله: -في معرض شرحه للحديث-: هذا أصل عظيم، من أصول الدين، وقاعدة مهمة، من قواعد الإسلام، وهو عمدة الصديقين، وبُغية السالكين، وكَنز العارفين، ودأب الصالحين.

وتلخيص معناه: أن تعبد الله عبادة من يرى الله ويراه الله، فإنه لا يستبقي شيئًا من الخضوع والإخلاص، وحفظ القلب والجوارح، ومراعاة الآداب،

---

(١) جزء من حديث جبريل عليه السلام المشهور، أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما دام في عبادته[١].

وقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»:

يعني: إنك إنما تراعي الأدب إذا رأيته ورآك؛ لكونه يراك، لا لكونك تراه، وحاصله الحث على الإخلاص في العبادة، والمراقبة فيها[٢].

إذا جلس المرء أمام رجل صالح استحى أن يراه يتكلم أو يفعل ما يُذم عليه، فكيف بالله الواحد القهار الذي لا يزال مطلع على سرك وعلانيتك؟!

راقب قلبك:

قال تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]. لا تسمح بدخول الأمراض فيه، من الحسد والحقد، والكبر والعُجب، وكراهية أهل الإيمان، وسوء الظن بالمسلمين، والتعلق بالدنيا، وغير ذلك.

فإذا أصاب قلبك مرض، فسارع إلى العلاج، وتناول الدواء الذي يذهب المرض، ولا تستهين بأمراض القلوب فقد تتمكن من القلب حتى تهلكه، فلا تؤثر فيه المواعظ، ولا تروه النصائح.

واعلم أن أنفع دواء لعلاج داء القلب هو قراءة القرآن وفهمه وتدبره، والدعاء بتضرع وانكسار لله الكبير المتعالي، العزيز الغفار، فإنه سميع قريب مجيب الدعاء.

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٢٠٤)، والتنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٤٥٣)، والكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: المصدر السابق.

راقب لسانك:

فلا نتكلم إلا بخير، واعلم أن الله تبارك وتعالى، جعل مَلكًا عن يمينك رقيب عتيد يكتب حسناتك، ومَلكًا عن شمالك رقيب عتيد يكتب سيئاتك فانتبه، وأمسك لسانك، ولا تتكلم كلامًا تحاسب عليه يوم القيامة.

قال جل ذكره: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها -أي: الألفاظ التي يتكلم بها العبد- من يُراقبها، مُعتد لذلك يكتبها، ولا يترك كلمة ولا حركة[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ: خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ**»[2].

راقب عينك:

لا تنظر إلى ما حرَّم الله عليك، ولا تنظر إلا إلى ما أباح الله لك أن تنظر إليه، وهذا يتناول الرجال والنساء على السواء.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور].

«والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٣/ ١٨٠)، ط. ابن رجب، بتصرف يسير.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يطلق نور بصيرته، عوضًا عن حبس بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان، والمعرفة والفِراسة الصادقة المُصيبة، التي إنما تُنال ببصيرة، فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر].

فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد البصيرة، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسُكر القلب»[1].

وبالجملة راقب جميع جوارحك، ولا تستعملها إلا فيما يرضي ربك.

من ثمرات المراقبة:

١- استقامة الإنسان على شريعة الله جل وعلا، كما أمر الله، قال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

٢- حسن الخاتمة، فمن أحسن المراقبة لله في أقواله وأفعاله وحركاته، وسكناته، وثبت على ذلك رُزق حُسن الخاتمة، فمن عاش على شيء مات عليه، والرب شكور يعطي الكثير على العمل القليل، ولا يضيع أجر المحسنين.

٣- دليل على صدق محبة الله والخوف منه، وتعلق القلب بالدار الآخرة، وهذه الأمور يحبها الله ويحب فاعلها.

---

(١) ما بين لقوسين من الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٧٩).

٧- التقوى

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى**»[١].

الشرح

التقوى عبادة من عبوديات القلوب وعمل من أعماله، ولو علم المرء أهمية التقوى ما غفل طرفة عين عن مراقبة نفسه، وما ادخر جهدًا في تحصيلها، وما ترك طريقًا يوصل إليها إلا سلكه، وحسبك أن الله ﷻ جعلها خير زاد يتزود به المؤمن ليوم المعاد، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ثم أمر بها أصحاب العقول السليمة الرزينة، فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

التقوى في الشرع: التقوى: اسمٌ مأخوذ من الوقاية، هو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله، والذي يقيك من عذاب الله فعل أوامره، واجتناب نواهيه[٢].

وقيل التقوى: ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك[٣].

وقيل: التقوى أن تزين سَرك للحق تعالى، كما تزين علانيتك للخلق[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢١).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين لابن باز وابن عثيمين (١/ ٢٦٩).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (١/ ٦٨).

(٤) انظر: المصدر السابق.

قوله ﷺ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى..»:

هذا، دعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للمسلم، وهو يتضمن سؤال الله تعالى خير الدين والدنيا، فإن «**الهدى**» هو العلم النافع، والنبي ﷺ محتاج إلى العلم النافع كغيره من الناس؛ لأن الله تبارك وتعالى قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، وقال الله تعالى له: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

والهدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتوفيق للحق، أما إذا ذكر معه ما يدل على التوفيق للحق، فإنه يُفسَّر بمعنى العلم.

قوله ﷺ: «وَالتُّقَى..»:

المراد بالتقى، تقوى الله ﷻ، فسأل النبي ﷺ ربه التُقى أي: يوفقه إلى تقوى الله؛ لأنه سبحانه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، فإذا وكِل العبد إلى نفسه ضاع، ولم يحصّل شيء.

وإذا رزقه التقى صار مستقيمًا على تقواه، وهذه نعمة من أعظم النعم[1].

قوله ﷺ: «وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى»:

المراد به أن يمُنَّ الله عليه بالعفاف والعفة عن كل ما حرم الله عليه، والعفاف أيضًا يتضمن العفاف عن ما في أيدي الناس، وعدم تعليق القلب بهم.

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار للسعدي (ص: ٢٠٥)، وشرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٧).

وأما «وَالْغِنَى»: فالمراد به الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر، ولا يحتاج المرء إلى أحد سوى ربه.

والإنسان إذا وفقه الله ومنَّ عليه بالهدى والتقوى والعفاف والاستغناء عن الناس، صار عزيز النفس، نقي القلب، مستقيمًا على مراد الله منه، ومن كان كذلك فهو من أفضل الخلق بلا شك[1].

من فوائد التقوى:

١- قبول الأعمال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

٢- حفظ الأولاد والذرية: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء].

٣- المخرج من كل ضيق، وزيادة الرزق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

٤- تيسير الأمر، وتكفير الذنب، وعِظم الأجر يُنال بالتقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق].

٥- حب الله تعالى للعبد التقى، وكفى بها رفعة وشرف: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة].

٦- رد كيد الشيطان، فلا يستطيع إغواء المتقي لأنه في حمى الملك الحق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم

(١) انظر: المصدر السابق.

مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

٧- الانتفاع بالموعظة، وتأثر القلب بها، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران].

٨- يصبح العبد من أولياء الله إذا حصّل التقوى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

٩- الفرقان بين الحق والباطل، فالتقى يبصره الله جل وعلا بالحق، ويصرف قلبه عن طريق الباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

١٠- دخول المرء تحت مظلة الشاكرين: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران].

وغير ذلك من بركات وخيرات ينالها المرء بتقوى الله ﷻ.

٨- التوكل

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[(١)].

الشرح

التوكل على الله هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس، وهذه الثقة محلها القلب، فمن صدق في اعتماد قلبه على الله في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضرُّ، ولا ينفع سواه، فهو المتوكل على ربه حقًّا.

واعلم أن الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر إلى الله لا ينافي التوكل، كما أن من تمام التوكل عدم الاعتماد على الأسباب، وقطع تعلق القلب بها، فيأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم أن السبب لا يؤثر إلا بإذن الله[(٢)].

على سبيل المثال: المريض يذهب إلى الطبيب، ويتناول الدواء، فإذا حقق التوكل علم أن تدبير الطبيب، ونفع الدواء لا يؤثر في المرض إذا لم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٧٨)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٤٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٤٤)، وفي الصحيحة (٣١٠)، وتخريج مشكاة المصابيح (٥٢٢٩).

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني (ص: ٧٤)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٤٠٩)، ومدارج السالكين (٢/ ١٤٥).

يُقدِّر الله تعالى الشفاء.

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا عاد مريضًا يقول: «**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»(١).

قوله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ»:

أي: تعلموا يقينًا أن الخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والفقر والغنى، والمرض والصحة، والموت والحياة، وغير ذلك، من الله تعالى وحده، لو علمتم ذلك واعتمدتم اعتمادًا كاملًا في طلب زرقكم وغيره على الله وحده، بحيث لم يخطر ببال العبد أن غير الله يرزقه، لرزقكم(٢).

قوله ﷺ: «لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ»:

لرزقكم كل يوم رزقًا جديدًا من غير أن تحتاجوا إلى غيره، وليس معناه ترك السعي في تحصيل الرزق، بل يخرج المرء من بيته لتحصيل الرزق متوكلًا على ربه، فالسعي أمر معتاد حتى في الطير، ورزقها على الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. [هود: ٦]، تطير في الجو، وتستجلب رزق الله، ثم تعود إلى أوكارها.

قوله ﷺ: «تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٣٢٠)، وحاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/ ٥٤١)، وشرح رياض الصالحين (١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، والتنوير شرح الجامع الصغير (٩/ ١٣٦).

الغدو: الذهاب أول النهار، وخماصًا: جائعة، وتروح بطانًا: أي: ترجع في آخر النهار (بطانًا) أي: ممتلئة البطون، من رزق الله تعالى[١].

من فوائد التوكل:

١- إذا طلبت النصر والفرج فتوكل على الله، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران].

٢- إذا أعرض عنك الخلق وتركوك، فليكن رفيقك التوكل: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٣- إذا جاء القضاء على خلاف هواك، فاستقبله بالتوكل؛ تجد برد الرضا ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة].

٤- إذا علمت الله هو الواحد، ومرجع كل شيء إليه، فلا يكن اتكالك إلا عليه: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد].

٥- إذا كانت الهداية من الله، فاستقبلها بالشكر والصبر والتوكل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم].

٦- الشيطان ليس له سلطان على المتوكلين على الله، أي: لا يتسلط عليهم، ويغويهم؛ بل الله يدفع عنهم -بقيامهم بعبودية الله، والتوكل عليه-

---

(١) انظر: المصدر السابق.

كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

٧- إن شئت أن تنال محبة الله، فكن من المتوكلين عليه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

٨- إذا أردت أن يكفيك الله كل أمر عسير، فأحسن التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه فيه، فما ظن العبد إذا كان في كفالة الملك الحق الغني القوي العزيز الرحيم[1]؟!

---

(١) ملتقط من بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (٢/ ٣١٣-٣١٥) باختصار وتصرف.

٩- الرضا

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»(١).

الشرح

قال صاحب التحرير: معنى رضيت بالشيء: قنعت به، ولم أطلب معه غيره(٢). انتهى.

والرضا: هو سكون القلب تحت مجاري الأقدار، فلا يسخط، ولا يعترض على ما يصيبه أو يفوته، لعلمه الجازم أن اختيار الله تعالى للعبد أفضل من اختياره لنفسه، فهو العليم الخبير الحكيم، يعلم ما يصلح عباده، وما لا يصلحهم، فاختياره لعبده بمقتضى علمه وحكمته ومشيئته، وهو أرحم على العبد من نفسه، سبحانه هو الرحمن الرحيم.

قوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا»:

أي: وجد حلاوة الإيمان ولذته في قلبه، واطمأنت به نفسه، وانشرح له صدره، وخالط الإيمان دمه ولحمه، فاستلذ الطاعة، وتحمل الأمور الشاقة؛ راجيًا رضا الله ﷻ، وآثر ذلك على الدنيا الفانية؛ لأن من رضي أمرًا سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعة الرحمن،

(١) أخرجه مسلم (٣٤) وغيره.

(٢) انظر: التحبير لإيضاح معاني التيسير للصنعاني (١/ ١٢٨)، شرح السيوطي على مسلم (١/ ٥١).

(من رضي بالله ربًّا) أي: من قنعت نفسه وطاب قلبه، واكتفى بالله ربًّا أي: مالكًا وسيدًا ومدبرًا ومتصرفًا في جميع أموره، لعلمه أن كل ما آتاه من ربه فهو الخير كله.

وكل من انقاد لغير الله، وخالف أمره ونهيه، وقدم هواه وآراء الناس على طاعة ربه، فلا يتم له رضا الله.

فالمقصود من الرضا: الانقياد لأوامر الله تبارك وتعالى في الظاهر والباطن، ومن تمام الرضا أن يكون العبد صابرًا على البلاء، وشاكرًا للنعماء، وراضيًا بقدره وقضائه، ومنعه وعطائه[1].

قوله ﷺ: «... وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»:

أي: يحمل بجمع شرائع الإسلام، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، في الظاهر والباطن، مخلصًا لربه جل وعلا، متبعًا للحبيب ﷺ.

الرضا نوعان: واجب ومستحب:

أولًا الرضا الواجب: هو فعل ما أُمر به، وترك ما نُهي عنه، ولهذا ذم اللهُ من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة].

---

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (١/ ٢٧٨)، وتحفة الأحوذي (٧/ ٣١٢)، والتحبير للصنعاني (١/ ١٣٠) وشرح النووي على مسلم (٢/ ١٣)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٧٦).

ثانيًا: الرضا المستحب: هو الرضا بالمصائب: كالفقر، والمرض، والذل، فهذا رضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقيل: إنه واجب، والصحيح: أن الواجب هو الصبر[١].

قال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء[٢].

وقال الربيع بن أنس: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره، وعلامة الدين (أي: قوة الدين): الإخلاص لله في السر والعلانية، وعلامة الشكر: الرضا بقدر الله، والتسليم لقضائه[٣].

من فوائد الرضا:

١- رضا الله جل ثناؤه عن العبد، ودخوله الجنة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

٢- البشارة برضا الله عن العبد عند الموت: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر].

٣- الشفاعة، لا تكون يوم القيامة، إلا لمن رضي الله عنه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم].

---

(١) ملتقط من الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٦٨١-٦٨٣) باختصار وتصرف.

(٢) الإحياء للغزالي (٣/ ٣٤٦)، ونضرة النعيم (٦/ ٢١٢٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٧) بتصرف يسير.

٤- الرضا يورث راحة القلب والعقل، فلا تجد عبدًا حقق الرضا إلا وقد زال عنه التوتر والقلق والأزمات النفسية.

٥- دليل حسن الظن بالله تعالى، والثقة في اختياره وتدبره لعبده.

الباب الثاني

جملة من أعمال الجوارح

١٠- مباني الإسلام

عَنْ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[(١)].

الشرح

هذه المباني الخمس أساس دين الإسلام وقواعده التي عليها بُني، وبها يقوم، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، وليس المقصود أن الأوامر هي هذه الخمس فقط، وما زاد عليها من سائر خصال الإسلام ليس فرضًا كما يظن بعض الجهال[(٢)].

قوله ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ..»:

فسر رسول الله ﷺ الإسلام بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهو عمل اللسان، وليس المراد الإتيان بلفظهما دون الإيمان والتصديق بهما، فمن قالها بلسانه غير مصدق بقلبه فهو منافق خارج من الإسلام، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٨٣)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٩٨)، وحاشية السيوطي على سنن النسائي (٨/ ١٠٨).

وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ [المنافقون]. فالمراد بالشهادتين الإيمان بالله ورسوله، وقد اتفق علماء أهل السنة أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل الإسلام ولا يخلد في النار، هو الذي اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا عن الشكوك، ونطق مع ذلك بالشهادتين، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل الإسلام أصلًا، بل يخلد في النار[1].

قوله: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ»:

هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأنفع أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي صله بين الإنسان وربه؛ لأن الإنسان يقوم بين يدي الله ﷻ يناجيه، كما روى رسول الله ﷺ، عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[2].

---

(١) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (١/ ٨٦)، وجامع العلوم والحكم (ص: ٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) وغيره.

وهي أيضًا أفعال وأقوال كلها تعظيم من حين يبدأ الإنسان بقوله: الله أكبر، يعني: أكبر من كل شيء، علمًا وسلطانًا، وكبرياءً وجبروتًا، فكل هذه السماوات على عظمها يطويها بيمينه، ويقبض الأرض على كبرها كقبضة أحدنا بيده على الشيء، قال جل ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

فالصلاة عبادة عظيمة، ويدلك على فضلها وعظمها ومحبة الله لها، أنه ما من فريضة فرضت على رسول الله ﷺ إلا بواسطة الوحي، إلا الصلاة فرضها الله على رسوله منه له مباشرة، كلّمه بها وفرضها عليه في أعلى مكان يصل إليه بشر، وفرضها عليه في أشرف ليلة كانت لرسوله ﷺ، وهي ليلة الإسراء والمعراج[1].

ومن فضائل الصلاة:

أنها تنهى المرء عن ارتكاب المحرمات وتمحو بها الخطايا والآثام: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**أَرَأَيْتُمْ، لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ**». قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «**فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا**»[2].

---

(١) ملتقط من شرح رياض الصالحين (٣/ ١٦٣)، باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتُكْمِلُوا بِهَا فَرِيضَتَهُ؟ ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»(١).

الترهيب من تعمد ترك الصلاة:

تعمد ترك الصلاة سبب في دخول النار، وخروج العبد من ملة الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر].

وعن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»(٢).

قوله ﷺ: «وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ..»:

الزكاة فرض أمر الله بها في أكثر من موضوع في كتابه العزيز، منها قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن يدعو الناس إلى التوحيد: «... فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٢٥)، والنسائي (١/ ٢٣٣)، والترمذي (٤١٣)، وابن ماجه (١٤٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) وغيره.

فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ..»[١].

الترغيب في الصدقة:

الصدقة عبادة، وعمل مالي، تطهر بها الأموال، وتزكى بها النفوس، وتضاعف بها الحسنات، وتكفر بها السيئات، والمتصدق في ظل عرش الرحمن يوم القيامة وغير ذلك من الخير الكثير الذي يناله المتصدق.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» إلى أن قال: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»[٣].

الترهيب من منع الزكاة:

قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وغيره.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ[1] لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ[2]- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ، وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَالْإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[4].

---

(١) شجاع أقرع: الأقرع من الحيات الذي أبيض رأسه من السم، ومن الناس الذي لا شعر برأسه، قاله القرطبي، انظر: الفتح (٣/ ٣١٧).

(٢) بشدقيه: هما العظمتان الناتئتان في اللحية تحت الأذنين، المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٩٨٧).

قوله: «وَحَجِّ البَيْتِ»:

الحج من الأعمال البدنية والمالية، فرضه الله تعالى على المؤمنين مرة واحدة في العمر للمستطيع.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قام فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ**». فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ: كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، ثُمَّ إِذًا لَا تَسْمَعُونَ، وَلَا تُطِيعُونَ، وَلَكِنَّهُ حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ**»(١).

وقد نقل إجماع العلماء على ذلك ابن قدامة وغيره(٢).

فضل الحج والعمرة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟

---

(١) أخرجه النسائي (٢٦٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٤٣٦)، وابن ماجه (٢٨٨٦)، وأحمد (٢٦٤٢).

(٢) انظر: المغني (٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»[١].

والحج المبرور: هو الذي لا يخالطه شيء من المآثم[٢]، فمن أراد أن ينال هذا الفضل فليتجنب المحرمات.

جهاد المرأة الحج:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ، لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»[٣]. وفي رواية البخاري: «جِهَادُكُنَّ الحَجُّ»[٤].

قوله ﷺ: «وَصَوْمِ رَمَضَانَ»:

الصوم من العبادات البدنية التي فرضها الله تعالى على عباده، وجعله شهرًا واحدًا من السنة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٩)، ومسلم (٨٣).

(٢) انظر: لسان العرب (١/ ٣٨١)، مادة (برر).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٣٠٧٤)، وابن ماجه (٢٩٠١)، وأحمد (٢٥٣٢٢)، والدارقطني (٢٦٩٠)، وقال ابن الملقن في «خلاصة البدر المنير» (٢/ ٣٣٥): إسناده على شرط الصحيح.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٧٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ**»(١).

فالصوم، هو صوم الجوارح عن المعاصي، بكف اللسان عن الآفات المهلكة كالغيبة والنميمة والكذب، وقول الزور وغيرها كثير، وغض البصر عن المحرمات، والأذن عن سماع الباطل، ومنع سائر الجوارح من الآثام، فكما أن الطعام والشراب يفسد الصوم، فكذلك الذنوب والمعاصي تفسد الصوم وتقطع ثوابه وثمرته، فينبغي على العاقل أن يعمل بوصية رسول الله ﷺ، فيملك نفسه عند الغضب، ويمنعها من تناول الشهوات المحرمة، ويقتصد في المباح من الطعام والشراب والنوم، ويتحلى بالطاعة وحسن الخلق حتى لا يفسد صومه.

فضل الصوم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

عَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟**

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١٦٢-١١٥١).

فَيَقُومُونَ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»[١].

وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ[٢] فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»[٣].

سمى رسول الله ﷺ مباني الإسلام إيمان:

أعلم أن الأعمال الظاهرة والباطنة داخلة في مسمى الإيمان، فالإيمان هنا ليس التصديق فحسب كما يظن البعض.

وقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلَ الْعَمَلِ: الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ»[٤].

فسمى ﷺ العمل إيمان.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: والإيمان، قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح[٥].

قال ابن رجب: المشهور عن السلف، وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان.

وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين، ومن بعدهم ممن أدركهم.

وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان، إنكارًا شديدًا ...

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

(٢) الخلوف: هو تغير رائحة الفم، شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) يراجع هذا التخريج.

(٤) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(٥) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/ ٥٥٤).

إلى أن قال: وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركنا الناس على غيره، وقال الأوزاعي: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الإيمان والأعمال[١].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار: أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها، استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، ذكره البخاري في «صحيحه»[٢].

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: لِوَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ الإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟»**. قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ...**»[٣].

الفرق بين الإسلام والإيمان:

كل مؤمن مسلم، فإن من حقق الإيمان، ورسخ في قلبه، قام بأعمال الإسلام، كما قال ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ**

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٦٦)، وشرح السنة للبربهاري (ص: ٥٢)، والإبانة لابن بطة (١/ ٤١١)، والشريعة للآجري (ص: ٩٠)، والسنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ص: ٢٦٤)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٣٢٩) وغيرها من كتب السلف.

(٢) كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»، فتح (١/ ٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[١].

فلا يتحقق بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام.

ليس كل مسلم مؤمنًا، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا، فلا يتحقق القلب به تحققًا تامًّا، مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام، فيكون مسلمًا وليس بمؤمن الإيمان التام.

كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ولم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين، وهو قول ابن عباس وغيره.

بل كان إيمانُهم ضعيفًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤].

يعني: لا ينقصكم من أجورها، فدل ذلك على أن معهم من الإيمان ما تقبل به الأعمال.

وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له: لَمْ تُعْطِ فُلانًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»[٢] يشير إلى أنه لم يحقق مقام الإيمان، وإنما هو في مقام الإسلام الظاهر.

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضًا[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٧٠-٧١).

١١- الجهاد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ: الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

الشرح

الجهاد مصدر جاهد يجاهد، ومعناه: محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل(٢).

قوله ﷺ: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»:

لما سُئل ﷺ عن أفضل الأعمال، فبين أن أفضلها الإيمان، وقد سبق أن نقلنا إجماع علماء أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وقوله ﷺ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»:

الجهاد في سبيل الله تعالى أقسام: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين(٣).

أولًا: جهاد النفس:

أن يحملها على فعل أوامر الله تعالى، وترك ما نهى عنه، فقد قال

(١) أخرجه البخاري (١٥١٩)، ومسلم (٨٣).

(٢) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٤١).

(٣) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ١٠).

رسول الله ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلًا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أُمرت به، وتترك ما نُهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج[(٢)].

فهذا الجهاد يحتاج إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه: غلب وحصل له النصر والظفر، وملك نفسه، فصار عزيزًا ملكًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غُلب وقُهر، وأُسر، وصار عبدًا ذليلًا في يدي شيطانه وهواه[(٣)].

ثانيًا: جهاد الشيطان:

الشيطان عدو مضل مبين، وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تحذر بني آدم من عداوة الشيطان، وأمرنا الله تعالى أن نتخذه عدوًّا ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فالعاقل لا يغفل عن جهاد هذا العدو، وجهاد الشيطان -كما قال ابن القيم- مرتبتان:

الأولى: جهاده على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك.

الثانية: جهاده على ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة، والشهوات[(٤)].

انتهى.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٥٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٧٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٦١١)، والترمذي (١٦٢١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٩).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦) باختصار.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٨٤).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٠) باختصار.

فالصبر يدفع عن الإنسان الشهوات المحرمة، والرغبات الفاسدة التي تغضب الله تعالى.

واليقين والتصديق بكل ما جاء في القرآن والسُّنة، يدفع عن الإنسان الشبهات والشكوك في أي شيء في دين الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾. [السجدة].

والوصول إلى حقيقة اليقين والصبر، لا يكون إلا بالعلم والعمل.

ثالثًا: جهاد الكفار:

أمر الله تعالى بجهاد الكفار؛ لتكون كلمة الله هي العليا، أي: كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»[1].فيعلو الإسلام وأهله، ويذل الشرك وأهله، ولذلك فرض الله القتال على المسلمين؛ لأنه خير لهم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعد ما كان المؤمنون مأمورون بتركه؛ لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس؛ لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف، والتعرض للموت، وغيره من المتالف.

ومع هذا ففي جهاد الكفار الخير الكثير، والثواب العظيم، والنصر على

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٢) ط. ابن رجب.

الأعداء، والظفر بالغنائم، وغير ذلك[١].

ولكن يجب قبل قتال الكفار أن نعد لقتالهم ما استطعنا من قوة، لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال].

الترهيب من ترك الجهاد:

والأدلة على ذلك كثيرة، منها حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**»[٢].

المراد من الحديث: أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين، المتخلفين عن الجهاد... فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق[٣].

رابعًا: جهاد المنافقين:

جهاد المنافقين يكون باللسان؛ لأن المنافق في الظاهر يصلي ويصوم ويدعي الإسلام، ولكنه عدو للإسلام والمسلمين، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

فالآية فيها ما يُشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود، ولكن إظهار المشركين شِركهم، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعًا.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٩٦، ٩٧) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠).

(٣) شرح النووي على مسلم (٨/ ٦٤) باختصار.

أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه قد يكون سببًا في الركون إليهم، فحذر الله تعالى عنهم لشدة عداوتهم مع خفاء هذه العداوة، فالمنافق عدو خفي[١].

من فوائد الجهاد في سبيل الله تعالى:

١- الجهاد أفضل الأعمال مطلقًا؛ لأنه وسيلة إلى إعلان الدين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه ... قاله ابن دقيق العيد[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

٢- قال رسول الله ﷺ: «**مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه[٤]؟

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: من اغبرت قدماه: أي: أصبها غبار، أو صارت ذات

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٨/ ١٩٢)، وشرح رياض الصالحين (٣/ ٣٩٠).

(٢) انظر: الفتح (٦/ ٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١١) وغيره.

(٤) فتح الباري (٦/ ٣٦).

غبار، والمراد في سبيل الله في طريقها للجهاد، أو لغيرها من الطاعات[١].

٣- قال رسول الله ﷺ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ»[٢].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد أن الجنة تحصل بالجهاد[٣].

٤- الكرامة والرفعة للمجاهد حتى أنه يتمنى بعد دخوله الجنة أن يرجع إلى الدنيا، قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ»[٤].

٥- أروح الشهداء في جوف طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الآية: «﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي

---

(١) فيض القدير (٦/ ٧٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٨١٨)، ومسلم (١٩٠٢) واللفظ للبخاري.

(٣) انظر: الفتح (٦/ ٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨١٧) وغيره.

سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[١].

٦- مغفرة ذنوب الشهداء.

قال رسول الله ﷺ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»[٢].

٧- بالجهاد ينال العبد الدرجات العلى في الجنة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ -أُرَاهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[٣].

وفوائد الجهاد أكثر مما تحصى، تركتها خشية الإطالة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

١٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

الشرح

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من وجبات الإيمان، والإسلام، بأدلة الكتاب والسنة، وإجماع الأمة(٢).

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

أما قول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، معنى الآية الكريمة، إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به، لا يضركم تقصير غيركم... وإذا كان كذلك فمما كُلف به المسلم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا فعله، ولم يستجب المخاطب، فلا أثم عليه، فإنما عليه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا القبول، والله أعلم(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) وغيره.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٢٨٩)، وشرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢)، والمفهم (١/ ١٤٩).

(٣) انظر: شرح الأربعين النووية، للنووي (ص: ٢٩)، مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٢١٢).

والمعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله تعالى، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع... والمنكر ضد ذلك كله[١].

فالمنكر: كل ما أنكره الشرع وحرمه من أنواع المعاصي؛ كبائر كانت أو صغائر.

قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»:

يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فلو كان مستورًا فلم يره ولم يعلم مكانه فلا شيء عليه.

ولابد لمغير المنكر، أن يكون عالمًا بما يغير، عارفًا بالمنكر من غيره، فقيهًا بصفة التغيير ودرجاته، وغلبت على ظنه منفعة فليغير بيده، فيكسر آلات الباطل، ويريق الخمور بنفسه، أو يأمر من يتولى ذلك، أو ينزع الأشياء المغصوبة-كالأرض والأموال- من يد المغتصبين، ويردها لأصحابها، أو يستعين بغيره على ذلك، كل هذا إن أمكنه[٢].

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب، فيكون يريد أن ينتصر لنفسه، والله أعلم[٣].

---

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ٢٣٢، ٢٣٣) باختصار، ومرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٠٢).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٢٩٠)، التنوير شرح الجامع الصغير (١٠/ ٢٧)، وشرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٥١)، وجامع العلوم والحكم (ص: ٥٥٦)، والمفهم (١/ ١٥٠).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (ص: ٥٦٤).

قوله ﷺ: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»:

فإن غلب على ظنه أن تغيير المنكر باليد يسبب منكرًا أشد منه، من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف من عقاب الله في الدنيا والآخرة.

فإن خاف -أيضًا- أن يسبب قوله منكرًا أشد من الذي ذكرناه، غير بقلبه -أي: أنكر بقلبه الباطل-، وهذا هو فقه المسألة، وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا لم يُزل المنكر إلا بما هو أنكر منه، صار إزالته على هذا الوجه منكرًا، وإذا لم يحصل المعروف إلا بمنكر مفسدته أعظم من مصلحة ذلك المعروف، كان تحصيل ذلك المعروف على هذا الوجه منكرًا.

وبهذا الوجه صارت الخوارج تستحل السيف على أهل القبلة، حتى قاتلت عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره من المسلمين، وكذلك من وافقهم في الخروج على الأئمة بالسيف في الجملة من المعتزلة والزيدية والفقهاء وغيرهم[٢].

قوله ﷺ: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»:

قد دل هذه الحديث -وغيره- على وُجُوبِ إنكارِ المنكر بحسب القُدرة عليه، وإنَّ إنكارَه بالقلب لابدَّ منه، فمن لم يُنْكِرْ قلبُه المنكرَ، دلَّ على ذَهابِ الإيمانِ مِنْ قلبِه .... فتبيَّن بهذا أنَّ الإنكارَ بالقلب فرضٌ على

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: منهاج السُّنة النبوية لشيخ الإسلام (٤/ ٥٣٦).

كلِّ مسلمٍ في كلِّ حالٍ، أمَّا الإنكارُ باليدِ واللِّسانِ فبحسب القُدرة[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: يوشك مَنْ عاش منكم أن يري منكرًا لا يستطيعُ له غيرَ أن يعلمَ اللهُ من قلبه أنَّه له كارهٌ[٢].

الترهيب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة].

ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر، ثم بَيَّن سبحانه المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩][٣].

فترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر سبب في اللعن، واللعن: هو الخروج من رحمة الله تعالى.

وقال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لَا يُغَيِّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»[٤].

أي: كان عندهم القدرة والقوة على منع المعاصي، وتغير المنكر ثم

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٥٥٥، ٥٥٦) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٢٩)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٧٥-٧٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٤-٣٠٥)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٢١٦٨)، والبيهقي (١٠/ ٩١)، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٤/ ٤٨٥)، وحسنه إسناده الألباني في الصحيحة (٣٣٥٣).

يتركونه دون نهي، يوشك أن يعم الله ﷻ الجميع بعقاب من عنده، الفاعل للمنكر والذي لم ينهه عن فعله.

تغليظ عقوبة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وخالف فعله قوله:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

وقال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ**[1]**، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»[2].

وإنما اشتد عذاب هذا؛ لأنه كان عالمًا بالمعروف والمنكر، وبوجوب القيام بوظيفة كل منهما، ومع ذلك لم يعمل بشيء من ذلك، فصار كأنه مستهين بحرمات الله تعالى وبأحكامه، ثم أنه لم ينتهي عن المنكر[3].

من فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١- النصر والتأييد والتوفيق من الله لمن قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. ونصره الله تعالى هو نصر دينه.

٢- شكر الله على نعمة عظيمة من نعمة، ألا وهي المعافاة في البدن،

---

(١) فتدلق أقتاب بطنه، أي: تخرج أمعاء بطنه، انظر: إكمال المعلم (٨/ ٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٤/ ١٤٥) بتصرف يسير.

قال رسول الله ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى[١] مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[٢].

٣- القيام بوظيفة الأنبياء والمرسلين، ألا وهي الدعوة إلى الله، وأصل الدعوة قائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٤- النجاة من عقاب الله الذي توعد به من ترك الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

٥- الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يدل على صدق محبة العبد لربه تبارك وتعالى والغَيرة لدينه، وإجلاله وتعظيمه، فيُحب أن يرى العباد طائعين لربهم، شاكرين لأنعمه، ذاكرين له غير غافلين، مقبلين على دينه غير مدبرين.

قال بعض السلف: قال سهل: سمعت زهيرًا يقول«وددت أن جسدي قرض بالمقارض، وأن هذا الخلق أطاعوا الله»[٣].

---

(١) كل سلامي: كل مفصل من مفاصل الجسد.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ١٥٠).

١٣- ذكر الله تعالى

عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»[١].

الشرح

من أعظم الأعمال، وأسهلها على الإنسان، ذكر الله ﷻ، وقد أمر الله عباده بكثرة الذكر في آيات متعددة دلت على فضل الذكر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب].

قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٣٥﴾ [الأحزاب].

«وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان؛ بل ذكر القلب واللسان، وذكر الله تعالى يتضمن ذكر أسمائه وصفاته، ذكر أمره ونهيه، وتلاوة كلامه، وذكر نعمه وإحسانه، والثناء عليه، وكل ذلك، لا يتم إلا بمعرفة شرعه، والإيمان بصفات كماله»[٢]. وهذا لا يكون إلا بعون الله للعبد، قال النبي ﷺ لمعاذ ابن جبل رضي الله عنه: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) واللفظ للبخاري.

(٢) ملتقط من الفوائد لابن القيم (ص: ٤١٤) بتصرف وتقديم وتأخير وزيادة.

وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١].

وقوله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ»:

دل الحديث على أن الذاكر لله حي، والمقصود بالحياة، حياة القلب، كما أن الجسد يحيى بالطعام والشراب، كذلك القلب يحيي بذكر ربه، وخالقه، وبارئه.

«والذاكر لله مزين ظاهره بنور الطاعة، وباطنه بنور معرفة ربه، وغير الذاكر لربه ظاهره عاطل، وباطنه باطل»[٢].

أفضل الذكر:

من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان، وإن كان على غفلة ثم لا يزال به حتى يحضر قلبُه..، ومنهم من لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه، فتواطأ جميعًا (لسانه وقلبه).

ومنهم من مُلء قلبه بحب الله جل وعلا، فينتقل الذكر من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار

---

(١) رواه أبو داود (٩٨٥)، وأحمد (٤/ ٣٣٨)، والنسائي (٣/ ٥٠٢)، وابن خزيمة (٧٢٤)، وابن حبان (٢٠٢٠)، وصححه النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٩٩)، وفي المجموع (٣/ ٤٨٦).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٤١)، وتحفة الباري بشرح صحيح البخاري (٩/ ٤١٤)، وإرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني (٩/ ٢٣١).

النبوية، واستشعر الذاكر لمعاني الذكر ومقاصده[١].

ثواب الانشغال بالله تعالى:

إذا أصبح العبد وأمسى -وليس همّه إلا الله وحده- تحمَّل اللهُ سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كلَّ ما أهمه، وفرّغ قلبَه لمحبته، ولسانَه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإن أصبح وأمسى -والدنيا همّه- حَمَّله اللهُ همومها وغمومها وأنكادها، ووكَلَه إلى نفسه، فشغل قلبَه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانَه عن ذكره بذكرهم، وجوارحَه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره...

فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعتهِ ومحبتهِ وذكرهِ بُلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف][٢].

من فوائد الذكر:

١- الله تبارك وتعالى يذكر من يذكره، فإن لم يكن في ذكر الله غيره هذه الفائدة فكفى بها نعمة ومنة وشرفًا، لو كانوا يفقهون، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- يجلب للمرء الثواب الجزيل، والخير الكثير، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) الفوائد (ص: ٣٠٩) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (ص: ٣١٠) بتصرف.

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»(١).

٣- كسب الحسنات، ومحو السيئات، والحرز من الشيطان، وتثقيل الميزان، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»(٢).

وقال ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(٣).

٤- ينجي من الغم، ويصرف عن القلب الهم، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٨) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[١].

٥- بالذكر تصل إلى أعلى مراتب الدين، ألا وهو الإحسان، فكثرة الذكر يورث مراقبة الله، فيعبد المرء ربه كأنه يراه، وهذا هو مقام الإحسان.

٦- الاشتغال بالحق، فاللسان إن لم يتكلم بالحق، تكلم بالباطل من الغيبة والنميمة، والكذب، واللغو، وغيرها من الآفات.

٧- حضور الملائكة مجالس الذكر، ونزول السكينة والرحمة على الذاكرين، وأعظم أنواع الذكر تلاوة القرآن.

قال رسول الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٢].

وغير ذلك من الفوائد، وهي كثيرة جدًّا، تركت ذكرها خشيت الإطالة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) وغيره.

الباب الثالث

جملة من أعمال البر والصلة والآداب

١٤- بر الوالدين

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «**الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا**»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[١].

الشرح

إنما اختلفت الأجوبة في هذه الحديث وغيره من الأحاديث -«أي العمل أحب إلى الله؟»- لاختلاف الأحوال، فأجاب لكل قوم بما تهمُّ الحاجة إليه، وترك ما لم تدع حاجتهم إليه، أو مما كان علمه السائل قبل ذلك، فأُعلم بما تدعو الحاجة إليه، أو بما لم يكمله بعد من دعائم الإسلام، ولا بلغه علمه.

ومثال ذلك: ما جاء في بعض الأحاديث من تقديم فضل الجهاد على الحج؛ لأنه كان في أول الإسلام، ومحاربة أعدائه والجد في إظهاره ... فقد يكون الجهاد في بعض الأوقات أفضل من سائر الأعمال، وذلك وقت استيلاء العدو، وغلبته على المسلمين[٢].

قوله ﷺ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»:

بر الوالدين، من أفضل الأعمال التي يتقرب به المرء إلى ربه -جل

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) وغيرهما.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٩)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٢/ ٩٣)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ١٨٩).

وعلا-، وقد جاء في القرآن آيات كثيرة؛ تحث على بر الوالدين، وتأمر به، منها:

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء].

بر الوالدين يكون بالقول الجميل، والرفق، واللين، والإحسان إليهما، والإنفاق عليهما، وطاعة أمرهما -إن لم يكن معصية- فأحق الناس بالشكر والإحسان -بعد الخالق المنَّان-، هما الوالدين، فقد قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤][(١)].

بر الأم مقدم على بر الأب:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الأم تفضل على الأب في البر[(٢)]، ومن أدلتهم أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (؟؟/ ١٨٧)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٢).

«**أُمُّكَ**» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « **أَبُوكَ**»[١].

ففي الحديث دلالة على محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن يكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لأنه ﷺ كررها ثلاثًا، وذكر الأب في الرابعة فقط...

وذلك لأن صعوبة الحمل والوضع والرضاع والتربية تنفرد بها الأم، وتشقي بها دون الأب، فهذه ثلاثة منازل يخلو منها الأب[٢].

فالأم تسهر الليل على راحته، وتمضي النهار في رعايته، تخاف على ولدها أكثر مما تخاف على نفسها بل تفديه بنفسها، فما يحصل للأم من مشقة وعناء في تربية ولدها لا يحصل للأب.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

بر الأم مقدم على الجهاد في سبيل الله:

كما هو ظاهر في الحديث الذي ذكرناه أول الباب، والمقصود بالجهاد في الحديث، جهاد الكفاية الذي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ، قَالَ: «**فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟**» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «**فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ؟**»

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) انظر: عمدة القاري (٢٢/ ٨٢)، شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ١٨٩)، وإكمال المعلم (٨/ ٥)، وإرشاد الساري (٩/ ٤)، والتيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٢٤١).

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**»(١).

وفي رواية: جَاءَ رَجُلٌ، فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِهَادِ، فَقَالَ: «**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**»(٢).

عظم حق الأم على ولدها لا توفيه خدمته لها:

عن أبى بردة؛ أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ، ورجلٌ يمانيٌ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ - حَمَلَ أُمَّهُ وراء ظهره- يقول:

إِنِّـــي لَهَـــا بَعِيرُهَـــا الْمُـــذَلَّلُ إِنْ أُذْعِـــرَتْ رِكَابُهَـــا لَـــمْ أُذْعَـــرِ

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ! أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: لَا. وَلَا بِزَفْرَةٍ واحدة، واحدة ثم طَافَ ابْنُ عُمَرَ، فَأَتَى الْمَقَامَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ أَبِي مُوسَى! إِنَّ كُلَّ ركعتين تكفران ما أمامهما(٣).

بر أصدقاء الأب والأم:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً، كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ إِنَّهُمُ الْأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤، ٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩) وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٢)، البخاري في «الأدب المفرد» (٤١) وغيرهما.

في هذا الحديث دليل على امتثال الصحابة لأمر رسول الله ﷺ، ورغبتهم في الخير، ومسارعتهم إليه؛ لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة، فإنه أكرم هذا الأعرابي من أجل أن أباه كان صديقًا لعمر رضي الله عنه، وهذا من البر بلا شك.

فإذا كان للأب أو للأم أحد بينهم وبينه وُدٌّ فأكرمه؛ لأنه يعد من بر الوالدين[١].

الترهيب من عقوق الوالدين:

عن أبي بكرة نُفيع بن الحارث رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ** -وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ- **أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[٢].

عقوق الوالدين من كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى توعد فاعله على الخصوص، لما للوالدين من حق على الولد.

وعقوق الوالدين: مأخوذ من العق وهو: القطع، يُقال عق عن لده يعقه عقًّا وعقوقًا: إذا قطعه ولم يصل رحمه[٣].

الذل والهون لمن عق والديه:

---

(١) ملتقط من شرح رياض الصالحين (٢/ ١٢٧) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) انظر: الكواكب الدراري (٢١/ ١٥٢)، وشرح النووي على مسلم (٢/ ٨٢)، وإرشاد الساري (٩/ ١٦٠).

قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ**»، قِيلَ: مَنْ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا، أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**»(١).

أصل الرغم -بفتح الراء وضمها- الذل من الرغام بالفتح، وهو: التراب، يُقال: أرغم الله أنفه: أذله، كأنه يلصقه بالتراب من الذل.

والحديث فيه فضل البر وعظيم أجره، وأن برهما يُدخله الجنة، فمن فاته ذلك، وقصّر فيه فقد فاته خير كثير.

لاسيما إذا أدركهما عند الكبر، وقد ضعفا عن الكسب والعمل، واحتاجا إلى خدمتهما، والقيام عليهما(٢).

صلة الوالد المشرك:

يجوز صلة الوالد المشرك، أو الأم المشركة، بشرط أَلَّا يطعهما في الدخول في الشرك، أو المعاصي، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: ١٥].

ويدل حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، على ما دلت عليه الآية، قالت أسماء رضي الله عنها: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥١) وغيره.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٣٦٥)، (٨/ ١٤)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٠٨)، مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٨٠).

صِلِي أُمَّكِ»[١].

دل الحديث على أن شرك الوالدين لا يمنع من برهما، وأن الإنسان يصل والديه، ولو كانوا مشركين؛ لأن لهما حق القرابة[٢].

من ثمرات بر الوالدين:

١- الفوز برضا الله تعالى، وفي ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

٢- بر الوالدين يفرج الكرب، كما جاء في حديث الثلاث الذين أووا إلى الغار في جبل، فانحطت صخرة من الجبل، فانطبق عليهم الغار، فقال بعضهم لبعض: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا، صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ بِهَا؛ لَعَلَّ الله يكشفها، فدعا أحدهم ببر والديه، ففرج الله لهم فرجة، فرأوا منها السماء[٣].

٣- بر أبنائك لك، فالجزاء من جنس العمل.

٤- طريق سهل موصل إلى الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٢، ٢٥٩٤)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) انظر: شرح مسند الشافعي لأبي القاسم الرافعي (٢/ ١٧١)، وإكمال المعلم (٣/ ٥٢٣).

(٣) أصل الحديث، أخرجه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

١٥- صلة الرحم

عَنْ عَائِشَةَ زوج النبي ﷺ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»[(١)].

الشرح

ما هي الأرحام:

الرحم، عبارة عن قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه (أي: من جهة أمه وأبيه) وإن علوا (الأب، والجد، وجد الجد وهكذا)، وأبنائه وإن نزلوا (أي: الابن، وابن الابن، وهكذا)، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، ومن يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة[(٢)]....

ما هي صلة الأرحام، وبما تكون:

صلة الأرحام، هي: الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة تكون بالخدمة، وتارة تكون بالزيارة والسلام، وغير ذلك[(٣)].

وتكون أيضًا بتعليمهم السُّنة، وحثهم على طاعة الله، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥) واللفظ له.

(٢) المفهم (٦/ ٥٢٤)، بتصرف يسير.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١١٣).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦][(١)].

حكم صلة الأرحام ودرجاتها:

لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث تشهد لهذا.

ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يُسمى قاطعًا، ولو قصَّر عما يقدر عليه وينبغي له لا يُسمى واصلًا، قاله القاضي عياض[(٢)].

قوله ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ...»:

والمراد بالحديث تعظيم شأن صلة الرحم، وفضيلة ذلك، وعظيم إثم قاطعيها.

والرحم المحرَّم قطعها، المأمور بصلتها على وجهين: عامة، وخاصة.

فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونُصرتهم، والنصيحة لهم وترك مضارتهم، والعدل بينهم والإنصاف في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المريض، وحقوق الموتى: من غسلهم، والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

---

(١) انظر: آداب العشري، للغزي (ص: ٥١) بتصرف يسير.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٣).

وأما الرحم الخاصة: فتجب لهم الحقوق العامة، وزيادة عليها كالنفقة على القرابة القريبة، وتفقد أحوالهم، والسؤال عنهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب»[(١)].

الترهيب من قطيعة الرحم:

قاطع الرحم ملعون من الله تعالى، واللعن من الله هو: الخروج من رحمة الله.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]**»[(٢)].

معنى «فرغ منهم»: أي: أكمل خلقهم، لا أنه اشتغل بهم، ثم فرغ من شُغله بهم، إذ ليس فعله بمباشرة، ولا بمناولة، ولا خلقه بآلة، ولا محاولة، تعالى عما يتوهمه المتوهمون، وسبحانه إذا أراد شيئًا، فإنما يقول له:

---

(١) انظر: المفهم (٦/ ٥٢٦)، شرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٢)، وفتح الباري (١٠/ ٤٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤)، واللفظ له.

كن فيكون[١].

وهذا لا يمنع أن الله تعالى، خلق بعض المخلوقات بيده، ومنها آدم عليه السلام، قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «خَلَقَ اللهُ تَعَالَى أَرْبَعًا بِيَدِهِ: الْعَرْشَ، وَعَدْنَ، وَالْقَلَمَ، وَآدَمَ، ثُمَّ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ: كُنْ فَكَانَ»[٢].

قاطع الرحم لا يدخل الجنة ابتداء:

قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»[٣]، قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي: قَاطِعَ الرَحِمِ.

قال النووي في معرض شرحه لهذا الحديث: هذا الحديث يتأول تأويلين:

أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة، بلا سبب، ولا شبهه مع علمه بتحريمها، فهذا كافر يخلد في النار، ولا يدخل الجنة أبدًا.

والثاني: معناه: لا يدخلها في أول الأمر مع السابقين؛ بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى[٤]. انتهى.

وهذا، اعتقاد أهل السنة والجماعة قاطبة، أن المسلم الذي مات على

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص: ٣١٨، ٣١٩)، والدارمي في الرد على المريسي (٣٥/ ٩٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٦)، والذهبي في العلو (ص: ٤٨)، وقال الألباني في مختصر العلو (ص: ١٠٥) سنده صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٤) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٢)، والتنوير في شرح الجامع الصغير (١١/ ١٨٠)، وشرح البخاري لابن بطال (٦/ ٢٠٣)، والمفهم (٦/ ٥٢٧).

التوحيد -ولم يتب قبل موته- لا يخلد في النار، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم[(١)].

من ثمرات صلة الأرحام:

١- بركة العمر، وسعة الرزق، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[(٢)].

ولا تعارض بين الحديث وبين المعلوم بالضرورة، وهو أن الأجل مكتوب، ولا يتغير، قال العلماء: والجمع بينهما من وجهين:

أحدهما: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة ..

وحاصله: أن صلة الرحم تكون سببًا في ذلك... فيبقى الذكر الجميل فكأنه لم يمت، ومن جملة ما يحصل له من التوفيق: العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح.

ثانيهما: أن الزيادة في العمر على الحقيقة، وذلك بالنسبة لعلم الملك الموكل بالعمر، أما الذي دلت عليه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف].

فهذا الذي في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو يمكن فيه الزيادة والنقصان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) انظر على سبيل المثال: الإبانة لابن بطة (ص: ٢٦٥)، شرح السنة للبغوي (١/ ١١٧)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٤٧٥)، وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد]، فالمحو والإثبات بالنسبة إلى ما في علم الملك، وما في أم الكتاب (اللوح المحفوظ) هو الذي في علم الله، فلا محو فيه ألبتة[١].

٢- علامة صحة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٢].

٣- دخول الجنة،قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[٣].

٤- محبة الله تعالى لمن يصل رحمه؛ لأنه أطاع أمره، ثم محبة الخلق؛ لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها.

---

(١) انظر: التحبير لإيضاح معاني التيسير (٦/ ٤٣٩)، وإكمال المعلم (٨/ ٢١)، والكواكب الدراري (٢١/ ١٥٧)، والمفهم (٦/ ٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (٣٢٥١)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦١٦)، وصححه في السلسلة الصحيحة (٥٦٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

١٦- تحريم الغيبة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(١).

الشرح

الغيبة من كبائر الذنوب، وقد نقل الإمام أبو عبد الله القرطبي الإجماع على أنها من الكبائر؛ لأن حد الكبيرة صادق عليها؛ لأنها مما ثبت الوعيد الشديد فيه(٢).

قوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»:

أي: أتعلمون ما جواب هذا السؤال؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، يعني: لو علمنا بعض العلم، لكن يستفاد منك حقيقة العلم بكل شيء(٣).

قوله ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»:

قال النووي: اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح، وأكثرها انتشارًا بين الناس، حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس.

وذكرك أخاك بما فيه عام، سواء كان في بدنه أو دينه، أو دنياه، أو نفسه

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، وغيره.

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٧٠).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٣٢).

أو خُلُقه، أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجته، أو خادمه.

أو ثوبه، أو مشيه وحركته، وبشاشته، وعبوسته وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به.

سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك، ونحو ذلك.

وضابط الغيبة: كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة، ومن ذلك المحاكاة بأن يمشي كمشيته أو غير ذلك يريد حكاية هيئة من ينقصه بذلك[١].

قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟

قال بعض الصحابة: فأخبرني إن كان الذي أقول فيه من العيوب موجودًا فيه؟؟

قال ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»:

معنى البهتان: الباطل، ويُقال: بهت فلان فلانًا،إذا كذب عليه فبهته، وأصل البَهْتِ: أن يُقال له الباطل في وجهه، والغيبة والبهتان محرمان، وكلاهما مذموم، سواء كان بحق أو باطل، كما دل على ذلك الحديث[٢].

أسباب الغيبة وبواعثها:

١- شفاء المغتاب غيظه بذكر مساوئ وعيوب من يغتابه.

٢- مجاملة الأصدقاء ومشاركتهم فيما يخوضون فيه من الغيبة.

---

(١) انظر: المصدر السابق بتصرف يسير.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤٢)، وإكمال المعلم (٨/ ٦٠).

٣- سوء ظن المغتاب في غيره، سببًا للغيبة.

٤- أن يُبرئ المغتاب نفسه من شيء وينسُبَه إلى غيره، أو يذكر غيره بأنه مشارك له.

٥- رفع النفس وتزكيتها بتنقيص الغير.

٦- حسد من يثني عليه الناس ويذكرونه بخير.

٧- الاستهزاء والسخرية وتحقير الآخرين[١].

الحالات التي تباح فيها الغيبة:

هذه الحالات ذكرها كثير من العلماء[٢]، قالوا: اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا به، فيدفع ذلك أثم الغيبة، وهي ستة أمور:

الأول: التظلم:

من ذكر للقاضي أن فلان سرق ماله، أو خانه، أو ظلمه، كان مغتابًا عاصيًا إن لم يكن مظلومًا، أما المظلوم فيباح له أن يذكر مظلمته عند القاضي، ويقول: ظلمني فلان، أو أخذ مالي أو ما أشبه ذلك، إذ لا سبيل لرفع الظلم عنه إلا بذلك.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا

---

(١) ملتقط من إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٩٩٥-٩٩٧) بتصرف، ط. دار المعرفة- بيروت.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ١٠٠١- ١٠٠٢)، شرح رياض الصالحين (٤/ ١١٨- ١٢٥)، والكواكب الدراري (١١/ ١٨- ١٩)، وإكمال المعلم (٨/ ٦٢).

امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْأَسْوَاقِ، فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَاتَانِ بِنْتَا ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ، فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَا تُنْكَحَانِ أَبَدًا، إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ**»، قَالَ: وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ: ﴿**يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ**﴾ [النساء: ١١] الْآيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ادْعُوا لِي الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا**» فَقَالَ لِعَمِّهِمَا: «**أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَلَكَ**»(١).

ففي الحديث جواز غيبة الإنسان للتظلم، لكن بشرط أن يكون ذلك عند من يُمكنه أخذ الحق لصاحبه، كالقاضي.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر:

تجوز الغيبة للاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصلاح، فيقول لمن له القدرة على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء

كمن تقول للشيخ أو المفتي: ظلمني زوجي، أو أخي أو فلان، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، والترمذي (٢٠٦٩)، والدارقطني (٤٠٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود الأم» (٢٨٩١)، قال: لكن ذكر ثابت بن قيس خطأ، والمحفوظ سعد بن الربيع.

ذلك، فهذا جائز للحاجة، لحديث هند بنت عتبة، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، فَقَالَ: «**خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ، بِالْمَعْرُوفِ**»(١).

ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول يا فضيلة الشيخ، في رجل أو زوج فعل كذا وكذا مع زوجته، فتحصل على حل المشكلة من غير تعيين، ومع ذلك فتعين الشخص -أي: ذكره باسمه- جائز.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم:

وذلك من وجوه، منها: المشاورة في الزواج من شخص، أو مشاركته في مشروع، أو غير ذلك، أو من رأي رجل صالح يتردد على صاحب بدعة ليأخذ عنه العلم، وخاف عليه أن يتلبس بالبدع فله أن يحذره من هذا المبتدع، شرط أن تكون النية صالحة، فقد يحمله الحسد على منع الناس من الحضور لهذا الشيخ أو العالم فيصفه بأنه مبتدع، أو يكون رجل من أهل الفساد؛ ولكنه قد سحر الناس بكلامه، وهم يظنون أنه على خير، فيجب أن تبين للناس شره وفساده وأنه لا خير فيه، وما أشبه ذلك.

عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ﵂، فَجَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**لَيْسَ لَكِ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ**»، فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ قَالَ: «**تِلْكِ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ، فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِي**»، قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ**» فَكَرِهْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**انْكِحِي أُسَامَةَ**»، فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ بِهِ[1].

الخامس: أن يكون الإنسان معروفًا بلقب:

كمن لقبه الأعرج، أو الأعمش، أو الجمل، وما أشبه ذلك، فلا إثم على من يقول: فلان الأعرج، أو الأعمش، فقد فعل ذلك العلماء؛ لضرورة التعريف، ويكون صاحبه صار مشهورًا به بحيث لا يكرهه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الظُّهْرَ أَوِ العَصْرَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ ذُو اليَدَيْنِ: الصَّلاَةُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَقَصَتْ؟»[2].

الشاهد: أن هذا الرجل كان معروفًا بذي اليدين، ولم يكره ذلك، ولم يُنكر النبي ﷺ على الصحابة أنهم ذكروه بهذا اللقب.

السادس: أن يكون مجاهرًا بالفسق والمعاصي:

كالمجاهر بشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وأكل الربا وغير ذلك من المحرمات، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغير من الأشياء التي لم يجر بها، إلا إذا وجد سبب آخر من الأسباب التي تُباح معها الغيبة.

عَنْ عَائِشَةَ أم المؤمنين: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ**» فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠) وغيره.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٢٧)، ومسلم (٥٧٣).

وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»(١).

كفارة الغيبة:

الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب إلى الله، ويتأسف على ما فعله، ثم يطلب ممن اغتبهم أن يعفو عنه، فتمشي إلى من أسأت إليه واغتبته، وتقول له: أنا ظلمتك، فإن شئت أخذت حقك، وإن شئت عفوت، فإن لم يسامحه المظلوم، أخذ هذا المظلوم من حسناته يوم القيامة، فإن لم يكن حسنات، وضع من سيئات هذا المظلوم على الظالم.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**»(٢).

وبعض أهل العلم قال: يدعو لمن اغتابه، ومنهم مَنْ قال: يتصدق عليه، ومنهم مَنْ قال: يثني عليه، ويدعو له بخير عند من اغتابه عندهم، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، من الكتاب، أو السُّنة، إنما هي اجتهاد من العلماء، أما ما دلت عليه السُّنة، هو وجوب التحلل من المظلوم، كما جاء في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٤) وغيره.

الحديث المتقدم[١].

من مضار الغيبة:

١- صاحب الغيبة يعذب في النار؛ لأنه حسناته ذهبت لمن اغتابهم، ثم طرحت من سيئاتهم عليه ثم طرح في النار.

قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[٢].

٢- صاحب الغيبة يذوق سوء العذاب، قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**»[٣].

٣- الغيبة دليل على خسَّة المغتاب، ودناءة نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٥٧)، والإحياء (١/ ١٠٠٢، ١٠٠٣)، وفتح الباري (١١/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) وغيره.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢)، وأبو داود (٤٨٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود الأم» (٤٨٧٨).

يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٢].

٤- تفسد الأخوة بين المؤمنين، وتبعث الشر في النفوس، وتسود القلب لأن القلب يسود بالمعاصي، والغيبة من أكبر المعاصي، وغير ذلك.

١٧- تحريم النميمة

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا يَنِمُّ الْحَدِيثَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»(١).

الشرح

النميمة عرفًا، هي: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم(٢).

وفي رواية، قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**». والنمام تفسير قتَّات(٣)، وأصله من تقتتُّ الحديث: إذا سمعه، وتقتتُّ الشيء: جمعته وكذلك فعل النمام(٤).

وتحرم النميمة إذا لم يكن فيها مصلحة شرعية، فإذا دعت الحاجة لذلك فلا مانع، كما إذا أخبره بأن إنسان يريد الفتك به، أو بأهله، أو بماله، فكل ذلك وما أشبه بغرض دفع الضرر عن المسلمين ليس بحرام.

قوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»:

نفي دخول الجنة عن عمل من الأعمال يراد به نفي الدخول الأَوْلي، أو نفي الدخول المآلي، والذي ينفي عنه الدخول الأَوْلي هم أهل التوحيد الذين لهم ذنوب يُطهرون منها -إن لم يغفر الله لهم- ثم يدخلون الجنة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١١٢)، وفتح الباري (١/ ١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٦٩-١٠٥).

(٤) انظر: إكمال المعلم (٣٧٩/١).

وأما الذين ينفي عنهم الدخول المآلي -يعني: لا يدخلونها أولًا، ولا مآلًا، لا يؤولون إلى الجنة أصلًا، فهؤلاء هم أهل الكفر.

مثال ذلك قوله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»(١)، وقوله: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ رحم**»(٢)، وقوله: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»(٣)، وأشباه ذلك.

إذن فتحصيل لنا كقاعدة من قواعد أهل السنة من فهم آيات وأحاديث الوعيد:

أن الآية، والحديث إذا كان فيه إثبات دخول الجنة على فعل من الأفعال، فإن هذا الإثبات ينقسم إلى: دخول أولي، بمعنى: أنه يُغفر له فلا يؤاخذ، أو أنه ممن يدخلون الجنة بغير حساب، أو أن الله خفف عنه فيدخلها أولًا، أو أنه من أهل الدخول المآلي.

وهكذا عكسها أنه لا يدخلها أولًا، ولا مآلًا على حد سواء -هذا في حق أهل الكفر على اختلاف أصنافهم-، وهذه من القواعد المهمة عند أهل السنة، التي خالفوا بها الخوارج والمعتزلة(٤)(٥).

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٦) وغيره.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

(٤) الخروج والمعتزلة فرقتان من الفرق الإسلامية الضالة، التي قال فيهم رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**». أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٥) شرح الأربعين النووية لآل الشيخ (ص: ١٨٣) بتصرف يسير.

الخلاصة:

أن النمام إذا مات على التوحيد بغير توبة، لا يدخل الجنة ابتداء؛ لكن يعذب بقدر ذنوبه -إن لم يغفر الله له -ثم يدخل الجنة؛ لأن اعتقاد أهل السنة قاطبة أن لا أحد من أهل التوحيد يخلد في النار، وقد سبق بيان ذلك[1].

ما يجب على من حُملت إليه النميمة:

من قيل له: أن فلان قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو ما أشبه هذا، فعليه ستة أمور:

الأول: أَلَّا يصدقه؛ لأن النمام فاسق، وهو مردود الشهادة، -لا تقبل شهادة- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه، ويقبح فعله، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أَلَّا تظن بأخيك الغائب السوء، لقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

الخامس: أَلَّا يحملك ما حُكي لك على التجسس، والبحث لتحقق،

---

(١) راجع -إن شئت- باب: الغيبة.

اتباعًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أَلَّا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته، فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون بذلك نمامًا ومغتابًا، وأتيت ما عنه نهيت.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئًا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ [القلم]، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو، يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا[١].

من مضار النميمة:

١- عذاب القبر، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ مِنْ كَبِيرٍ**» ثُمَّ قَالَ: «**بَلَى أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**» قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ عُودًا رَطْبًا، فَكَسَرَهُ بِاثْنَتَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى قَبْرٍ، ثُمَّ قَالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[٢].

٢- إشعال نار العداوة والبغضاء بين المسلمين.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ١٠٠٥-١٠٠٦) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (٢٩٢).

٣- انشغال القلب بما يضره ولا ينفعه.

٤- أهلك نفسه، وجعلها من أهل الوعيد بعدم دخول الجنة.

١٨- تحريم الكذب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[١].

الشرح

وكما يكون الصدق والكذب في الأقوال، يكونان في الأفعال، فقد يفعل الإنسان فعلًا يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل، مثلما تكون المخادعة بالقول.

ومن أمثلة ذلك: ما حكاه الله لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عليه السلام إذ جاؤوا أباهم عشاء يبكون بكاءً كاذبًا، وقالوا -كذبًا-: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٧].

وجاؤوا على قميص يوسف عليه السلام بدم كذب، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل[٢].

قوله ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»:

آية المنافق: أي: علامته، وسميت آية القراء، آية لأنها علامة انقطاع كلام عن كلام[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) الأخلاق الإسلامية للميداني (١/ ٥٢٩) بتصرف يسير.

(٣) انظر: الكواكب الدراري (١/ ١٤٧)، وشرح مسلم النووي (٢/ ٤٨)، وفتح الباري (١/ ٨٩).

إذا حدث في كل شيء كذب، أي: أخبر عنه بخلاف الواقع، وفي الحديث التحذير من الكذب، وأنه علامة من علامات النفاق[١].

قوله ﷺ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»:

إذا وعد بالخير في المستقبل أخلف، فلم يف، وإخلاف الوعد حرام، فيجب على من وعد الوفاء بالوعد، سواء كان الوعد بالمال، أو بالإعانة على أمر من الأمور، أو غير ذلك.

أما من أخلف وعده لعذر، أو مانع، أو بدا له رأي فيه مصلحة، فهذا لا يُقال أنه منافق أو به علامة نفاق؛ لأنه كان عازمًا على الوفاء بالوعد، لولا أن عرض له مانع[٢].

قوله ﷺ: «وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»:

يعني: إذا ائتمنه الناس على أموالهم، أو على أسرارهم، أو على أولادهم، أو ما أشبه ذلك، فإنه يخون الأمانة، فيأخذ من المال الذي ائتمن عليه، ولا يحفظ السّر بل ينشره، ولا يرعى الأولاد،ولا يراعي مصالحهم، فهذه علامة من علامات النفاق[٣].

ما يباح من الكذب:

١ - الكذب من أعظم الخطايا، وهو شر وندامة يوم القيامة، إلا ما

---

(١) انظر: إرشاد الساري (١/ ١١٨)، مرقاة المفاتيح (١/ ١٢٦)، وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٢١).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) ملتقط من شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٢٩) بتصرف وزيادة.

رخص فيه الشرع، فقد يجب الكذب إذا كان فيه دفع مضرة وظلم.

مثال ذلك: إذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، وسُئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، فإذا سأل الظالم هل فلان في البيت؟ تقول: لا، وأنت تعلم أنه في البيت، فهذا الكذب لا بأس به، لإنقاذ البريء من الموت والهلاك، وقيس ما ذكرت على غيره.

ولكن الأفضل والأحوط أن يوري، ومعنى التورية: أن يقصد بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه، وإن كان كاذبًا في ظاهر اللفظ.

مثال ذلك: إذا جاء هذا الظالم الذي يريد أن يقتل شخص بغير حق، وقال لك: هل فلان هنا؟ تقول: لا، وتلمس يدك بيدك الأخرى، يعني ليس في يدي.

أو إنسان ألح عليك تعطيه مالًا، وأنت لا تريد أن تعطيه لأنه فاسد، فتقول له: والله ما بيدي شيء، ويدك ليس فيها شيء.

٢- ومن الكذب المباح، حديث الرجل زوجته، وحديث المرأة زوجها فيما يوجب الألفة والمودة.

مثل أن يقول لها: أنت عندي غالية، وأنت أحب الناس إليَّ، وما أشبه ذلك، وإن كان كاذبًا[1]، والدليل:

عَنِ ابْنِ شِهَابٍ: أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ، أَخْبَرَتْهُ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: «**لَيْسَ**

(١) انظر: المصدر السابق بتصرف.

الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا». قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا[١].

من مضار الكذب:

١- قد يؤدي إلى دخول النار، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[٢].

٢- عدم التمييز بين الحق والباطل.

قال ابن القيم: إياك والكذب، فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويُفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعدوم موجودًا، والموجود معدومًا، والحق باطلًا والباطل حقًّا، والخير شرًّا، والشر خيرًا، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيُفسد عليه تصوره وعلمه[٣].

فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدُهما ومضارهما بمثل الكذب، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٣) انظر: الفوائد (ص: ٢٩٩).

[محمد]، وقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة][(١)].

٣- أسوأ أنواع الكذب هو: الكذب على الله ورسوله، كمن يقول: قال الله وليس كذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف]، وكذا الكذب على رسول الله ﷺ، كمن يقول: قال الرسول، وليس من كلام رسول الله ﷺ.

عَنِ المُغِيرَةِ بن شعبة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

وغير ذلك من مضار الكذب.

---

(١) الفوائد (ص: ٣٠٠) باختصار.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٢)، واللفظ للبخاري.

١٩- تحريم الظلم

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»(١).

الشرح

الظلم حرام، بإجماع علماء المسلمين، وهو من كبائر الذنوب(٢)، وقد جاءت فيه نصوص الوعيد قرآنًا وسُنَّة، والله جل ثناؤه حرم الظلم على نفسه، وحرَّمه بين العباد، فقد روى رسول الله ﷺ في الحديث القدسي، عن ربه جل جلاله أنه قال: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»(٣).

فالله سبحانه وتعالى، منع عن نفسه الظلم لعباده، فلا يقع منه ظلمًا -تعالى وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف]، وغيرها من الآيات التي جاء فيها نفي هذه الصفة الذميمة عن الرب تبارك وتعالى.

قوله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...»:

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) وغيره.

(٢) انظر: الكبائر للإمام الذهبي (ص: ١٤١) ط. دار ابن رجب.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مطولًا.

الظلم هو الجور، ومجاورة الحد، وقيل: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمعنى: احذروا عقوبة الظلم، فإن الظلم لصاحبه ظلمات يوم القيامة.

قيل: الحديث محمول على ظاهره، أي: يكون الظلم ظلمات على صاحبه، فلا يهتدي بسببها، كما أن المؤمنين يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم.

أو المراد بالظلمات: الشدائد، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، أي: من شدائدهما[١].

وقال ابن الجوزي: الظلم يشمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرهما؛ لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار.

إنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر[٢].

من صور الظلم:

١- أخذ مال اليتيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء]، قال رسول الله ﷺ: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»[٣].

---

(١) انظر: التنوير شرح الجامع الصغير (١/ ٣٣٥)، ومرقاة المفاتيح (٤/ ١٣٢١)، فتح الباري (٥/ ١٠٠)، شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٣٤)، وعمدة القاري (١٢/ ٢٩٣).

(٢) انظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٩٣)، وفتح الباري (٥/ ١٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

٢- ومن أعظم الظلم المماطلة بحق عليه مع قدرته على الوفاء، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ، قال: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**»(١).

المطل: هو: منع قضاء ما استحق أداؤه، وهذا من الظلم؛ لأنه منع أداء الحقوق؛ لأصحابها مع القدرة على الأداء.

٣- ومن الظلم أن يمنع المرأة حقها من صداقها، ونفقتها، وكسوتها، ويشهد له الحديث السابق.

٤- ومن الظلم أن يستأجر أجيرًا، أو إنسانًا في عمل، ولا يعطه أجرته، لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ، قال يقول الله تبارك وتعالى: «**ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»(٢).

وكذلك إذا ظلم يهوديًّا أو نصرانيًّا، أو نقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فهو داخل في قوله تعالى -في الحديث القدسي المتقدم- أنا خصمه يوم القيامة(٣).

٥- ومن الظلم أخذ أموال الناس بالباطل، سواء كانت عقارات أو أراضي، أو مال، وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧، ٢٢٧٠)، من حديث أبي هريرة.

(٣) انظر: الكبائر للذهبي (ص:١٤٥-١٤٩)، وإكمال المعلم (٥/ ٢٣٣)، والكواكب الدراري (١٠/ ١١٧)، والتحبير لإيضاح معاني التيسير (٧/ ٤٠).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

والمعنى: أن يكلف نقل ما ظلم منها (أي: ما أخذ من أرض الغير بغير حق) إلى أرض المحشر، فيكون كالطوق في عنقه، وقيل: يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين(٢).

أنواع الظلم:

قال بعض العلماء: الظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود].

الثاني: ظلم بينه وبين الناس بالتعدي عليهم -ماديًا أو معنويًا- قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

الثالث: ظلم بينه وبين نفسه بارتكاب المعاصي، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص:١٦](٣).

الحذر من دعوة المظلوم على الظالم:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: الكواكب الدراري (١١/ ٢٤)، وإكمال المعلم بفوائد مسلم (٥/ ٣١٩)، وشرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٨٠).

(٣) انظر: المفردات للراغب (ص ٣١٥-٣١٦) بزيادة وتصرف.

قال رسول الله ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[١].

ففي الحديث، دليلٌ على استجابة دعوة المظلوم، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه، يحاسبه الله عليه يوم القيامة -إن لم يتب أو لم يعف الله عنه- فلا تمنع أحدًا حقه، أو تتكلم في عرضه، أو تأخذ منه شيئًا ظلمًا -وإن كان كافرًا- حتى لا يدعو عليك.

ولكن إذا أخذ المظلوم حقه في الدنيا، فدعا على الظالم بقدر مظلمته، واستجاب الله دعاءه فيه، فقد اقتص لنفسه قبل أن يموت[٢].

قوله ﷺ: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»:

فحذر النبي ﷺ من أمرين: من الظلم، ومن الشح، والشح: هو الحرص على ما ليس عندك، والبخل بما عندك، فكان الشح سببًا في هلاكهم؛ لأن حرصوا على الدنيا، فحملهم ذلك على القتل، وسفك الدماء، واستحلوا محارم الله تعالى، أي: صيّروا ما حرم الله عليهم حلالًا[٣].

من مضار الظلم:

---

(١) متفق عليه، تقدم تخريجه.

(٢) انظر: الكواكب الدراري (١١/ ٢١)، وفتح الباري (٣/ ٣٦٠)، وعمدة القاري (١٢/ ٢٩٣)،ومرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٢٦).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٤٨)، والتنوير شرح الجامع الصغير (١/ ٣٣٥)، والمفهم (٧/ ٩٨).

١- يُقتصُّ للمظلوم من الظالم -إن لم يرد الظالم للمظلوم حقه في الدنيا (ماديًّا كان أو معنويًّا) أو يعفو عنه- تؤخذ من حسنات الظالم، فتضاف إلى حسنات المظلوم، فإذا نفذت حسنات الظالم، يؤخذ من سيئات المظلوم فتطرح على الظالم، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

قال رسول الله ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(١).

الشاة الجلحاء: هي الجماء التي لا قرن لها، والمعنى: أن الحقوق ستؤدى إلى أهلها يوم القيامة، وأن القصاص والمجازاة واقع في الآخرة لا محال حتى بين البهائم، وهذا من كمال عدل الله ﷻ(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(٣).

قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا، مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (١٦/ ١٣٦)، وإكمال المعلم (٨/ ٥١)، والتنوير شرح الجامع الصغير (٩/ ٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

٢- الظالم لن يجد يوم القيامة، من ينصره أمام الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة].

٣- نفاذ دعوة المظلوم فيه، كما بينا في الحديث.

٤- الظلم المتعلق بحق الله والإشراك به، يُحرم صاحبه الشفاعة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر].

٥- الظلم يفسد القلب، ويجعله قاسيًا كغيره من المعاصي.

٦- الظلم معصية متعدية، يصعب التوبة منها لوجوب رد الحقوق إلى المظلوم، أو عفو المظلوم عن من ظلمه.

---

(١) راجع -إن شئت- باب: تحريم الغيبة.

٢٠- تحريم الحسد والتباغض والتدابر والتهاجر

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»(١).

الشرح

نهى رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن أمور لا تجوز بين المؤمنين، لكونها تسبب وقوع العداوة والبغضاء بينهم، والتي تنافي الأخوة والرحمة التي وصفهم الله تعالى بها في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: يرحم بعضهم بعضًا(٢).

قوله ﷺ: «لَا تَبَاغَضُوا...»:

نهى ﷺ عن التباغض والكراهية إشارة إلى النهي عن الأهواء المضلة الموجبة للتباغض ومنها المنافسة في الدنيا التي تؤدي إلى التباغض وقسوة القلب، فكل شيء يتولد عنه البغضاء حري بالعاقل أن يبتعد عنه حفاظًا على سلامة قلبه، وذلك بالنظر إلى محاسن من تبغضه، وغض البصر عن سيئاته، والتحلي بالصفح والعفو، والتجاوز عن أخطاء الناس، عسى الله أن يتجاوز عنك بعفوك من أخيك.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٧)، وإكمال المعلم (٨/ ٢٣)، وعمدة القاري (٢٢/ ١٣٧).

قوله ﷺ: «وَلَا تَحَاسَدُوا..»:

الحسد: هو تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواء كانت نعمة دين أو دنيا، وسواء أرادها لنفسه أو لا، فالحاسد يكره رؤية ما أنعم الله به على عباده.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، أي: على ما أعطهم الله من فضله[١].

فالواجب على الإنسان إذا رأى من نفسه حسدًا لأحد أن يتقي الله، وأن يوبخ نفسه، ويقول لها: كيف تحسدين الناس على ما آتاهم الله من فضله، كيف تكرهين نعمة الله على عباده؟

يقول: أرأيت لو كانت هذه النعمة عندك أتحبين أن أحدًا يحسدك عليها؟ يقول لنفسه: أنت لو حسدت وكرهت ما أعطى الله من فضله لعباده، فإن ذلك لن يضر المحسود، بل هو ضرر على الحاسد، وغير ذلك مما يوبخ به نفسه، حتي يدع ما به من حسد، وحينئذٍ يطمئن ويستريح قلبه، ولا يتنكد، ولا يتكدر[٢].

فسلامة القلب من الحسد، وتمني الخير للغير، نعمة وسعادة، وراحة لا يعلمها إلا من سلم من هذا المرض العضال.

قوله ﷺ: «وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ...»:

---

(١) انظر: عون المعبود (٩/ ٢١٩١)، شرح رياض الصالحين (٤/ ١٧٧)، وعمدة القاري (٢٢/ ١٣٦).

(٢) انظر: المصدر السابق.

التدابر: المعادة، يُقال: دابرت الرجل: عاديته، وقيل: معناه: لا تقاطعوا ولا تهاجروا؛ لأن المتهاجرين إذا ولي أحدهما عن صاحبه فقد ولاه دبره، ومعنى كونوا عباد الله إخوانًا: أي: تعاملوا وتعاشروا مع بعضكم معاملة الإخوة ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة، والتعاون في الخير، ونحو ذلك من صفاء القلوب، والنصيحة بكل حال للمسلمين[١].

قوله ﷺ: «وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»:

الهجرة: ترك الشخص مكالمة الآخر إذا تلاقيا، والهجرة في الأصل فعلًا أو قولًا.

إنما جاز الهجرة في ثلاث أيام، وما دونها، لما جُبل عليه الآدمي من الغضب، فسُومِحَ بذلك القدر؛ ليرجع فيها ويزول ذلك الشيء الذي أغضبه، وحمله على حجرة أخيه، وهذا يكون بين المسلمين بسبب تقصير يقع منهم في حقوق الأخوة، والعشرة، والصحبة.

ومن هجر مسلمًا أكثر من ثلاثة أيام أثم؛ لأنه ﷺ أخبر أنه لا يحل ذلك، ومن فعل ما هو محظور عليه فقد اقتحم حمى الله، وانتهك حرمته[٢].

أما إن كانت الهجرة بسبب الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع واجبة في جميع الأوقات وعلى مدار الأيام، ولا تقتصر على ثلاثة، ما لم يظهر

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٨/ ٢٣)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١١٦).

(٢) انظر: فتح الباري مع هدي الساري لابن حجر (١٠/ ٤٩٣)، وعون المعبود (٩/ ٢١٩١)، وشرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/ ٢٦٩).

منهم التوبة، والرجوع إلى الحق[١]، شرط أن يعلم الإنسان يقينًا أن هذا الشخص مبتدع، فيحرم على المسلم وصف أخيه أنه مبتدع جزافًا بغير دليل يتيقن به أنه مبتدع.

من مضار التباغض والتحاسد والتدابر والتهاجر:

١- الحرمان من مغفرة الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[٢].

٢- الأضرار الكثيرة الذي يصيب الحاسد في الدنيا والآخرة، منها:

- الحاسد دائمًا في هم وحزن، كلما أنعم الله على أحد بنعمة احترق قلبه، فلا يزال الحاسد يعذب بكل نعمة يراها على الناس.
- الحاسد قد يتمنى لنفسه البلاء، وهو لا يدري، كمن يحسد الناس على المال، فإذا رزقه الله المال بغى وطغى وفسد، وانشغل عن أمر الآخرة، فكان المال نقمة عليه، نعمة على غيره، سبحانه هو الحكيم العليم.
- الحاسد معترض على أقدار الله تعالى، فهو سبحانه الذي قسم الأرزاق، فجعل هذا غنيًّا وهذا ذكيًّا، وهذا عالمًا إلى غير ذلك، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ١٣٢].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥) وغيره.

• الحاسد متشبه بالمشركين وبالمنافقين واليهود في تمنيهم الشر للمسلمين، وزوال النعم عنهم، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

• الحاسد جندي من جنود إبليس، يسخره إبليس لإمضاء ما يريد في عباد الله الصالحين.

• أول من حسد البشر إبليس، حين حسد آدم على مكانته عند الله، وأبى أن يسجد له حسدًا، فلا تتشبه بالشيطان اللعين[1].

(١) ملتقط من التسهيل لتأويل التنزيل (٢/ ٧٤٦) بتصرف وزيادة.

الباب الرابع

جملة من الأخلاق والمعاملات

٢١- حسن الخلق

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا، وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»(١).

الشرح

حث الله تبارك وتعالى عباده على حسن الخلق، وأمر به في غير موضع من كتابه العزيز، كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

وأثنى على عبده ورسوله ﷺ بهذه الصفة الحميدة، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ولما سئل سعد بن هشام عائشة أم المؤمنين عن خُلُق النبي ﷺ قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ»(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦) مطولًا.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠١٥)، وبعضه في البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠) بعضه أيضًا.

إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ»[١].

ولم يكن فاحشًا، أي: ناطقًا بالفحش، ولا متفحشًا أي: متكلفًا في الفحش، يعني أنه ﷺ لم يكن الفحش فيه خلقًا أصليًّا، ولا كسبيًّا.

وأصل الفحش هو: الزيادة على الحد في الكلام السيئ، والمراد به هنا سوء الخلق، وبذاءة اللسان ونحو ذلك[٢].

قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»:

قيل: حُسن الخلق: اختيار الفضائل من الأخلاق، وترك الرذائل، وهي داخلة تحت قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف][٣].

قال النووي: وقال بعض العلماء: حُسن الخلق: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه[٤].

أما كف الأذى: بألا يؤذي الناس بلسانه، ولا بجوارحه.

وبذل الندى: يعني: العطاء، فيجزل العطاء، من مال وعلم وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) انظر: الكواكب الدراري (١٤/ ١٤٤)، وفتح الباري (٦/ ٥٧٥)، وعمدة القاري (١٦/ ١١٢)، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/ ٣١).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٤١).

وطلاقة الوجه: بأن يلاقي الناس بوجه منطلق، ليس بعبوس، ولا مصعر خده[١].

بعض العلماء قسم الخلق إلى قسمين:

أحدهما: مع الله ﷻ: أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله تعالى ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيب النفس به، سلسًا نحوه، وينتهي عما حَرَّم عليه راضيًا به، غير مضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرًا من المباح لوجه الله تعالى وتقدس إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله، مستبشرًا بذلك؛ غير ضجر، ولا متعسر به.

والثاني مع الناس: أن يكن سمحًا لحقوقه، لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها.

فإن مرض ولم يُعَدْ، أو قدم من سفر فلم يُرز، أو سَلَّم فلم يُرد عليه، أو ضاف فلم يُكرم، أو شفع فلم يُجب، أو أحسن فلم يُشكر... وما أشبه ذلك، لم يغضب، ولم يُعاقب، وأنه لا يقابل كل ذلك إذا وجد السبيل إليه، بل لا يَعتدُّ بشيء من ذلك، ويقابل كلًّا منه بما هو أحسن وأفضل وأقرب إلى البر والتقوى[٢].

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الذي ذكرناه أول الباب أن رسول الله ﷺ لم ينتقم لنفسه قط.

---

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) انظر: مختصر شعب الإيمان للقزويني (١١٦، ١١٧) باختصار وتصرف، وموسوعة نضرة النعيم (٥/ ١٥٧٠).

من ثمرات حسن الخلق:

١- يثقل ميزان العبد يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ**»(١).

٢- يجلب حب الناس، ويُصلح ما بين المرء وما بين الناس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق(٢)؛ لأن تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه، وحُسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحُسن الخلق يدعو إلى محبته(٣).

٣- حسن الخلق يجعل عدوك كأنه لك حميم أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك(٤).

قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت].

٤- حسن الخلق سبب في حب رسول الله ﷺ للمرء وقربه منه يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٤)، وأبو داود (٤٧٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٣٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٦٤١).

(٢) يُشير إلى قول رسول الله ﷺ لما سُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**». رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٩٧٧)، وصحيح «الأدب المفرد» (٢٢٢).

(٣) انظر: الفوائد (ص: ٢١٠).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١٢/ ٢٤٩) ط. دار ابن رجب.

أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»[١].

٥- بحسن الخلق يبلغ المرء درجة الصائم النهار، القائم الليل، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[٢].

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه ابن حجر العسقلاني في تخريج «مشكاة المصابيح» (٤/ ٣٦٨)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠١)، وفي «الصحيحة» (٧٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٩٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود الأم (٤٧٩٨)، وصحيح الترغيب (٢٦٤٣).

٢٢- التواضع

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»(١).

الشرح

علمنا رسول الله ﷺ التواضع بفعله وبقوله، وأمر الله تبارك وتعالى عباده بالتواضع ونبذ الكبر والتعاظم، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء]. وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان].

قوله ﷺ: «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ...»:

الوحي: إعلام في خفاء، وقد أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ أن يأمر أمته (أن تواضعوا) بخفض الجناح، واللين والرفق.

وقيل التواضع: الاستسلام للحق، وترك الاعتراض على الحكم، وقيل: قبول الحق ممن قاله، صغيرًا أو كبيرًا، شريفًا أو وضيعًا، حرًّا أو عبدًا(٢).

قوله ﷺ: «حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»:

والفخر هو: ادعاء العظمة والكبرياء، والشرف، (حتى) بمعنى: كي،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وغيره.

(٢) انظر: فيض القدير للمناوي (٢/ ٢١٧)، بتصرف وزيادة.

أي: كي لا يتعاظم أحد على أحد بتعدد محاسنه كبرًا، ورفع قدر نفسه على الناس[١].

ويحرم الفخر، سواء كان بالنسب، أو بالسلطان والجاه، أو بالمال، أو بالعلم، وكل ذلك من أمور الجاهلية المحرمة، قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ** .... »[٢]. الحديث.

قوله ﷺ: «وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»:

البغي: مجاوزة الحد في الظلم، قال الطيبي: المراد أن الفخر والبغي شحناء الكبير؛ لأن المتكبر هو الذي يرفع نفسه فوق منزلته، فلا ينقاد لأحد، قال ابن تيمية: نهى الله على لسان نبيه نوعي الاستطالة على الخلق، وهي: الفخر والبغي.

لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، أو بغير حق فقد بغى، فلا يحل هذا، ولا هذا[٣].

الفرق بين التواضع، والذل والمهانة:

التواضع هو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة لعباده، فلا يرى له على أحد فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًّا؛ بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قِبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله ﷻ من يحبه

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٧/ ٣٠٧٢)، وفيض القدير (٢/ ٢١٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٣) انظر: فيض القدير (٢/ ٢١٧) بتصرف.

ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة (الذل): فهي الدناءة والخسَّة، وبذل النفس أو ابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السّفَل في نيل شهواتهم، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضِعَة[١] لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع، ويبغض الضِّعَة والمهانة[٢].

التواضع من أخلاق رسول الله ﷺ والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

كل إنسان لابد أن يكون له من يقتدى به في أقواله وأفعاله، وكل حياته، ومن نعم الله على المؤمنين، أن يجعل لهم هذا النبي الكريم الأمين رسولنا ﷺ قدوة وأسوة، نقتدي به، ونهتدي بهديه، فمن أراد أن يكتسب خلق التواضع، فلينظر في سيرة إمام المتواضعين ﷺ، ومن ذلك:

*** أنه كان ينهى عن المبالغة في مدحه، وهو سيد الأنبياء والمرسلين والخلق أجمعين:**

قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»[٣].

ومن تواضعه ﷺ سلامه على الصبيان:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ

---

(١) الضِّعَةُ: خلاف الرفعة في القدر، وهي الانحطاط واللؤم، والخسة، انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ١٣٠٠)، وجمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٩٠٥).

(٢) انظر: الروح لابن القيم (ص: ٦٥٧-٦٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

ﷺ يَفْعَلُهُ»[١].

ومن تواضعه أنه كان ينقل التراب بنفسه يوم الخندق:

عَنِ البَرَاءِ بن عازب رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ:

«وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: «أَبَيْنَا أَبَيْنَا»[٢].

من تواضعه الإقرار لأهل الفضل:

كان يذكر فضل أبي بكر، فيقول: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ[٣].

وغير ذلك من صور تواضعه، وهي كثيرة جدًّا.

ومن صور تواضع الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-:

أنهم جميعًا رعوا الأغنام، كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ**»، فَقَالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٥٨)، وأحمد (١٣/ ١٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦).

أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»(١).

داود عليه السلام كان حدادًا:

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ]، من فضل الله عليه، أن ألان له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات(٢).

وزكريا عليه السلام كان نجارًا:

قال رسول الله ﷺ: «كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا»(٣).

نبي الله سليمان عليه السلام الذي أعطاه الله ملكًا لم يعطه لأحد بعده:

يقول في رسالته لامرأة كافرة، هي وقومها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]، ولم يقل من الملك سليمان.

من فوائد التواضع:

١- رفعة المنزلة بين العباد في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «... مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(٤).

٢- من أعظم السُبل التي يتقرب به العبد إلى ربه، ومن أسباب استجابة الدعاء، قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢).

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص: ٦٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٧٥٢)، وابن ماجه (٢١٥٠)، وأحمد (٧١٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٥١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٦٠)، و«صحيح الجامع» (٤٤٥٦).

(٤) جزء من حديث، أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

اللهِ لَأَبَرَّهُ»[١].

٣- امتثال أمر الله ورسوله بالتواضع، وخفض الجناح للمؤمنين، وما يترتب على ذلك من محبة الخالق والخَلْق له.

٤- التشبه بالأنبياء والمرسلين في هذا الخلق الجم.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

٢٣- الرفق

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ، يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(١).

الشرح

العنف: الشدة والمشقة، وكل ما في الرفق من الخير، ففي العنف من الشر مثله(٢).

قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ، يُحِبُّ الرِّفْقَ...»:

استدل فريق من أهل العلم بهذا الحديث على أن الرفيق من أسماء الله تعالى، منهم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيره.

قال ابن القيم في نونيته:

وهو الرفيقُ يُحبُّ أَهلَ الرِّفْقِ بلْ ... يُعطِيهمُ بالرِّفقِ فَوْقَ أَمانِ(٣)

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن أسمائه «الرفيق» في أفعاله وشرعه.

ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئًا بعد شيء، وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد، وما في خلقه من

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) وغيره.

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٣٠٩)، ولسان العرب لابن منظور (٩/ ٢٥٧).

(٣) انظر: الشروح والتعليقات العلمية على القصيدة النونية (٣/ ١٥٧)، بشرح جمع من العلماء، ط. دار بداية.

الحكمة إذ خلق الخلق أطوارًا، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وييسر من جري على ما يحبه أموره كلها.

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقًا في أموره متأنيًا، ومع ذلك لا يُفوِّت الفُرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت[١].

قوله ﷺ: «وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»:

والمعنى: أنه سبحانه وتعالى يعطي على الرفق أي: يثيب عليه ما لا يُثيب على غيره، وقال القاضي: معناه: يتأتى به من الأعراض، ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره[٢]، فالله ييسر أمر الرفيق من عباده، ويعطيه ما لا يعطي العنيف الفظ الغليظ.

رفق الداعي بالمدعوين:

على الداعي، أن يدعو الناس إلى الهدى برفق ولطف، وأن يتأمل آيات الكتاب، وكيف أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى الرفق، وبيّن لهم أن استجابة الخلق للحق يكون بالرفق لا بالعنف، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤٥)، وإكمال المعلم (٨/ ٦٥)، وفتح الباري (١٠/ ٤٤٩).

وأمر موسى وهارون عليهما السلام بالرفق واللين في دعوتهم؛ لأعتى عتاة الأرض، الجبار فرعون، الذي قال على نفسه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، قال تعالى لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

فمن دعا إلى الله برفق مستنًّا بسنة رسول الله ﷺ لانت له القلوب، وتذللت له الصعاب، وتيسرت له الأمور، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ**»(٢).

صور من رفق رسول الله ﷺ:

عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنكُمُ اللهُ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُمْ. قَالَ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ**» قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «**أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»(٣).

معنى السَّأم: الموت، فاليهود، قالوا: السَّأم عليكم أي: الموت بدلًا السلام عليكم، فترك النبي ﷺ مقابلة اليهود بمثل قولهم، ونهى عائشة رضي الله عنها عن الإغلاظ في ردها، ففي الحديث الرفق بالجاهل، والصفح عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٠).

وإن كان الانتصار للنفس بمثل ما قُوبل به المرء جائز، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى]. والصبر أعظم أجرًا، وأعلى درجة لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى].

فالرفق والصبر من أخلاق النبيين والصالحين، فيجب امتثال طريقتهم، والتأسي بهم؛ رجاء الثواب، ثواب الله تعالى[١].

رفقه ﷺ بالمؤمنين:

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[٣].

تأمل كيف رفق بالأعرابي لجهله، مع حرسه ﷺ على صيانة المسجد من النجاسة، فأمر أن يهريقوا على بوله (ذنوبًا من ماء) أي: دلو مملوءة ماء، فصُب على بوله، فأمر بالتخفيف والتيسير على الناس[٤].

---

(١) انظر: شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٢٢٦)، وإكمال المعلم (٧/ ٤٩)، ومعالم السنن (٤/ ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٨).

(٤) انظر: الكواكب الدراري (٢١/ ١٧٨)، شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٠٢)، وفتح

وأوصى النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذًا لما بعثهما إلى اليمن، فقال: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا**»(١).

من ثمرات الرفق:

١- دخول الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»(٢).

٢- حظ المرء من الخير بمقدار حظه من الرفق، وقد دلت أحاديث الباب على ذلك.

٣- رفق الله تعالى بالعبد الرفيق، فعن عائشة قالت: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «**اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ**»(٣).

٤- دعوة الناس إلى الحق برفق أقرب للقبول، والانقياد لما يدعو إليه، كما دلت الآية التي ذكرناها في الباب

=

الباري مع هدي الساري (١٠/ ٥٢٥).

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٨).

٢٤- الإصلاح بين الناس

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ**»(١).

الشرح

الإصلاح بين الناس، بأن يكون بين رجلين أو بين الرجل وامرأته، أو بين طائفتين من المسلمين عداوة وشحناء، فيسعى المرء إلى الإصلاح بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٩٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٩١)، وابن عساكر في «معجم الشيوخ» (٢/ ١١٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٢٧)، و«صحيح أبي داود الأم» (٤٩١٩)، وفي «تخريج مشكاة المصابيح» (٤٩٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٩).

قوله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟...»:

الصلاة، والصيام، أعمال قاصرة، أي: نفعها يعود على الإنسان نفسه، أما الإصلاح بين الناس، فهو عمل متعدي، يصل نفعه إلى الغير، فقد يمنع بإصلاح ذات البين سفك الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض، وانتهاك حرمات الله تعالى، وما أشبه ذلك.

فذكر رسول الله ﷺ أنها خير من كثير من الصيام والصلاة والصدقة، يحتمل أن يريد به النوافل فيكون معناه: أنها خير من كثير من جنس الصلاة والصدقة، ويحتمل أن يريد بها أنها خير من إكثار الصلاة والصدقة، وهو أيضًا راجع إلى النافلة، ويحتمل أنها خير وأكثر ثوابًا بما يسديه بعضهم إلى بعض، أو كثرة الثواب باحتساب الأذى[1].

فقد يصيب الإنسان أذى وضرر من الناس الذي يريد أن يصلح بينهما، فعليه أن يصبر ويحتسب الأجر عند الله.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر].

فالله تبارك وتعالى حث عباده على إصلاح ذات البين؛ لتكون أحوالهم أحوال ألفة محبة واتفاق، فتزكو النفوس، وتصفى القلوب.

ضوابط الإصلاح بين الناس:

١ - الإخلاص:

(١) انظر: المنتقى شرح الموطأ للباجي (٧/ ٢١٣)، وعون المعبود (٣/ ٢٥٣)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٥٨)، ومرقاة المفاتيح (٥/ ٣١٥٣).

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

دلت الآية على أن الإخلاص في الإصلاح بين الناس، شرط لحصول الأجر ونيل الثواب.

٢- ألا يخالف المصلح شرع الله:

فلا يجوز الصلح بين الناس إذا ترتب عليه تحريم حلالًا، أو تحليل حرامًا.

قال رسول الله ﷺ: «**الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**»(١).

مثال ذلك: أن يصلح بين الرجل وامرأته بشرط أَلَّا يعطي زوجته الثانية حقوقها المشروعة، فهذا الصلح لا يجوز؛ لأنه حرَّم ما أحل الله.

أو يكون الصُلح على ما حرَّم الله من أكل الربا أو أخذ أموال الناس

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٣)، وأبو داود (٨٧٧٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٩١)، وابن الجارود في «المنتقى» (٦٣٨، ١٠٠١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الأسانيد -وإن كان الواحد منها ضعيفًا- فاجتماعها من طرق يشد بعضها بعضًا، مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٤٧)، وقال ابن القطان في «الوهم والإيهام» (٥/ ٢١١): ينبغي أن يُقال فيه: حسن، وقال ابن العربي: رُوي من طرق عديدة، ومقتضى القرآن، وإجماع الأمة على لفظه ومعناه -عارضة الأحوذي (٦/ ١٠٣).

بالباطل، أو غير ذلك مما حرّمه الشرع[١].

٣- العدل في الإصلاح بين الناس:

قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصُلح؛ بل يُصلح صلحًا ظالمًا[٢].

مثال: كمن يُصالح بين خصمين بينهما ميراث فيحيف على أحدهما ويظلمه، بسبب قرابة بينه وبين الآخر، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢].

فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله.

٤- جواز الكذب إن لم يتحقق الصلح إلا به:

قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**»[٣].

«**فَيَنْمِي خَيْرًا**» أي: ينقل كلامًا للإصلاح بين المتخاصمين، عن أحدهما، وإن لم يقله، وإن قال شرًّا يقل خلافه، بأن يقول لأحدهما: إن صاحبه يحبه ويمدحه ويُثني عليه، وما أشبه ذلك.

وفي الحديث دليل عِظم شأن الإصلاح بين الناس، لأنه أُبيح له ما قُبح عقلًا وشرعًا[٤].

---

(١) انظر: فيض القدير (٤/ ٢٤٠)، وعون المعبود وحاشية ابن القيم (٩/ ٣٧٣).

(٢) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)، واللفظ للبخاري.

(٤) المفهم (٦/ ١٢٣)، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٢/ ٦)، التنوير =

قوله ﷺ: «وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»:

والمعنى: أنها الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي: تهلك وتستأصل الدين، كما يستأصل الموسى الشعر، أو أنها مزبلة وهالك لمن وقع فيها، لما يترتب عليه من الفساد والضغائن، وتشتت القلوب، ووهن الدين، وتسليط الأعداء، وشماتة الحُساد[1].

من فوائد الإصلاح بين الناس:

١- عبادة عظيمة يحبها الله، ويجزل عليها الثواب.

٢- أفضل من نافلة الصيام والصلاة والصدقة، كما تقدم في الحديث.

٣- يغرس في النفوس المودة والحب، والعفو والصفح.

٤- دفع الفساد والشر بين المسلمين، وما يترتب عليه من الأجر العظيم، وغير ذلك.

=

شرح الجامع الصغير (٩/ ٢٣٠).

(١) انظر: فيض القدير (٣/ ١٠٦)، والتحبير لإيضاح معاني التيسير (٦/ ٦٧٥).

٢٥- قضاء حوائج المسلمين

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

الشرح

هذه كلمات قليلة، جمعت جملة من الأخلاق الحميدة، وبيان فضل قضاء حوائج المسلمين، وحماية المسلم لأخيه المسلم، فلا يظلمه، ولا يسلمه، أي: لا يخذله، ولا يلقيه إلى الهلاك(٢)، فحري بكل مسلم أن يكون مع أخيه المسلم، كما وصفه رسول الله ﷺ في قوله: «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**»(٣).

قوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ... »:

أي: من كان في عون أخيه بإعانته على قضاء حوائجه، أعانه الله، وسهل له قضاء حاجته، كما قال رسول الله ﷺ:«**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) انظر: الكواكب الدراري (٢٤/ ٧٠)، فتح الباري (٥/ ٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وغيره.

والحاجة إما مادية، أو معنوية، فإذا احتاج أخيك المسلم إلى إعانة مادية وأنت تقدر على إعانته فأعنه، وإن كانت حاجته معنوية فهون عليه المصيبة، وذكّره بجزاء الصبر على الابتلاء، كل ذلك ما لم تكن الإعانة على معصية، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

من صور قضاء حوائج المسلمين:

السعي على الأرملة والمسكين:

من أعظم الطاعات، فالأرملة مات زوجها وعائلها، وتركها وأولادها، وليس لهم من يعولهم، وكذلك المسكين، والفقير الذي لا يجد من يسد حاجته، وحاجة أولاده، هؤلاء في أشد الحاجة إلى من يقضي حوائجهم، ولذلك رغب رسول الله ﷺ في السعي على هؤلاء، وذكر هذا السعي عند الله كمن يجاهد في سبيله، أو كمن يصوم النهار لا يفطر، ويقيم الليل لا يفتر[١].

قال رسول الله ﷺ: «**السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ**»[٢].

كفالة اليتيم:

الذي يموت عنه أبوه، وهو صغير قبل بلوغ الحلم، يحتاج إلى من يرعاه، ويسعى لقضاء حاجته، فإعانته بالمال من البر والإحسان، ومن كفله دخل الجنة.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٠٦)، ومسلم (٢٩٨٢).

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»(١) وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى.

التيسير على المعسر:

مع كثرت ديونه، إن كان فقيرًا لا يملك ما يقضي به دينه، فعلى صاحب الدين إنظاره وإمهاله في حال إعساره، حتى يجد ما يوفي به دينه، وإن تصدق عليه بإسقاط الدين، أو بعضه فهو خير له عند الله الكريم الشكور، فقد ندب الله إلى التصدق على الفقير المعسر، وجعل ذلك خيرًا من إنظاره(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»(٣).

قوله ﷺ: «وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ...»:

الكرب: هو الغم الذي يأخذ النفس فتحزن، و(فَرَّجَ) أي: أزال وكشف،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٣٧٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ١١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

فمن أزال وكشف عن مسلم كربة في الدنيا، أزال وفرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، التي لا تحصى[١].

ومنها: الوقوف للحساب ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حتى يغرق في عرقه حتى يصل إلى أذنيه[٢]، من شدة الخوف والتعب، والمرور على الصراط، وهو جسر فوق جهنم[٣]،وغير ذلك، من أهوال وشدائد يوم القيامة.

وتفريج الكرب وإزالته يكون بالمساعدة بالمال، أو الجاه، والسلطان، أو بالكلمة الطيبة، أو بأي وسيلة مشروعة في مقدور المسلم أن يفرج بها هم أخيه المسلم.

قوله ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»:

الستر المندوب المستحب هو الستر على المسلم الذي ليس معروفًا بالأذى والفساد والشر، فأما المعروف بذلك فيستحب أَلَّا يُستر عليه -إن لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم- لأن الستر عليه يُطمِعُهُ في الإيذاء، ونشر الفساد، وانتهاك الحرمات وتجرأ غيره على مثل فعله.

فالستر على المسلم يكون في معصية وقعت وانقضت، فلا يُشهر ذنوبه بين الناس، وإن رآه على معصية وعلم عنه قبيح، فليستر عورته، ولا

---

(١) انظر: فتح الباري (٥/ ٩٧)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٥)، ومرقاة المفاتيح (٧/ ٣١٠٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، (١/ ١٧١).

يُشهرها بين الناس، فمن أظهر مساوئ أخيه، لم يستره الله يوم القيامة.

وليس في ذلك ترك الإنكار عليه خُفية -بينه وبين العاص- فالنصيحة واجبة، فإن لم يرجع رفع أمره إلى المسؤول، وليس ذلك من الغيبة المحرمة[١]، وقد سبق بيان وجوب إنكار المنكر ومراتبه، والأحوال التي تباح فيها الغيبة[٢].

من ثمرات قضاء حوائج المسلمين والستر عليهم:

١- إعانة الله للمرء على قضاء حاجته.

٢- يثمر الألفة والتواد والتراحم بين المسلمين عامة، وبينك وبين من أحسنت إليه خاصة.

٣- تفريج الكرب يوم القيامة.

٤- ستر عورات المرء بستره على المسلمين، وما منا إلا له ذنوب وعيوب، وعنده عورات يحب أن تُستر، ولا تظهر للناس، ولا يعرفها أحد.

٥- عظم الأجر؛ لأنها أعمال متعدية يصل نفعها إلى كثير من الناس، فيكثر الثواب.

---

(١) انظر: شرح البخاري لابن بطال (٦/ ٥٧١)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٥)، وفتح الباري (٥/ ٩٧)، وعمدة القاري (١٢/ ٢٨٨).

(٢) انظر: باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباب: تحريم الغيبة.

٢٦- الوصية بالنساء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»(١).

الشرح

كان العرب في الجاهلية، يكرهون البنات؛ حتى أن أحدهم يسود وجهه إذا بُشر بالأنثى، وكانوا ينظرون إليها على أنها بضاعة تباع وتشترى، يتصرفون فيها كيف شاءوا.

ومن ذلك دفن البنات في التراب وهن أحياء، خشية العار بزعمهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير].

كان العرب في الجاهلية يعتبرون المرأة من الميراث، فإذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، فيسيء معاملتها حتى يرثها أو يزوّجها من أراد.

ومن فساد عقولهم أن كان لهم نكاح يسمونه «نكاح الاستبضاع»، وهو أن الرجل يرسل امرأته -إذا طهرت من الحيض- إلى رجل من كبار القوم لتأتي منه بولد، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، وإنما يفعل هذا رغبة في نجابة الولد، أي: كي يأتي ولد يتصف

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) وغيرهما.

بصفات ذلك الرجل الشريف بزعمهم.

كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها دخلت خِفشًا -أي: بيت صغير جدًّا- ولبست شر ثيابها، حتى تمر سنة.

كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل شاغرني أي: زوجني ابنتك، على أن أزوجك ابنتي أو أختي بلا مهر، وهو ما يسمى نكاح الشغار، فكانوا يتعاملون مع المرأة على أنها سلعة يتصرف فيها مالكها كيف شاء[١].

وغير ذلك من الظلم البيّن للمرأة في الجاهلية.

فجاء الإسلام، فأعزها غاية الإعزاز، ورفع شأنها وكرمها، والمقام لا يتسع لذكر مكانتها في الإسلام.

قوله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاء خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ»:

والمعنى: أوصيكم بهن خيرًا فاقبلوا وصيتي فيهن، بالرفق والصبر عليهن، فإنهن خلقن من ضلع، وذلك لأن حواء -وهي أم البشر- خلقت من ضلع آدم عليه السلام، ويدل على ذلك قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]. وأعوج ما في الضلع أعلاه، مبالغة في الاعوجاج[٢].

---

(١) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٨٠)، الشافي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير (٥/ ٥٧)، والحاوي الكبير للماوردي (١١/ ٢٧٤)، والمدونة الكبرى للإمام مالك (٢/ ١٦)، شرح البخاري لابن بطال (٧/ ٥٠٩)، المقدمات الممهدات لابن رشد (١/ ٤٨٧).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/ ٢١١٧)، ونيل الأوطار (٦/ ٢٥٨)، شرح رياض الصالحين =

فقوله ﷺ: «فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»:

والمعنى: إن أردت أن تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها، لأنك إذا حاولت أن تستقيم لك على ما تريد، فلا يكن ذلك، وحينئذ تسأم منها وتطلقها، فكسرها طلاقها.

فأرشد ﷺ الرجال إلى ملاطفة النساء، والصبر على ما لا يستقيم من أخلاقهن، والتنبيه على أنهن خلقن على تلك الصفة، وليس من الحكمة أن يطلب منها حقه كاملًا؛ لأنه لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال، ولكن كما قال رسول الله ﷺ: «وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»[(١)]. فاستمسك بهذا التوجيه النبوي الحكيم، فإن استقامت في دينها، فلن تستقيم فيما تقضيه طبيعتها، ولا تكون لزوجها على ما يريد في كل شيء، فهي قاصرة ومقصرة بمقتضى جبلتها وطبيعتها[(٢)].

العدل والموازنة بين الحسنات والسيئات:

قال رسول الله ﷺ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرَهُ»[(٣)].

=

(٢/ ٦٩)، وإكمال المعلم (٤/ ٦٨٠)، والتنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٣٤٨)، فتح الباري مع هدي الساري (٦/ ٣٦٨)، التحبير لإيضاح معاني التيسير (٦/ ٤٥٤).

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٦٩)، وغيره.

فأرشد ﷺ إلى حسن العشرة، والنهي عن البغض للزوجة بمجرد كراهة خلق من أخلاقها، فهي لا تخلو مع ذلك من أمر يرضاه منها، فيجب على الإنسان العدل، وأن يوازن بين السيئات والحسنات، فإذا كان منصفًا غض عن مساوئها لاضمحلالها في محاسنها.

وأما من غض بصره عن المحاسن، ونظر إلى المساوئ ولو كانت قليلة، فهذا من عدم الإنصاف والعدل[١].

حُسن العشرة:

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع، إذ لكل أحدٍ عشرة، زوجًا كان أو وليًّا ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾[٢]، وذلك توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول لا فظًّا ولا غليظًا، ولا مظهرًا ميلًا إلى غيرها، والعشرة بالمخالطة والممازحة[٣].

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٠/ ٥٨)، وشرح السيوطي على مسلم (٤/ ٨٠)، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار للسعدي (ص: ١٢٢)، وفتح الباري مع هدي الساري (٦/ ٣٦٨).

(٢) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ١٠٢).

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟، قَالَ: «**أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، أَوِ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**»(١).

وقوله ﷺ: «وَلَا تُقَبِّحْ»: معناه: لا يسمعها المكروه، ولا يشتمها، بأن يقول: قبحك الله، وأشبهه من الكلام(٢).

وقوله ﷺ: «لَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»: أي: لا تهجرها إلا في المضجع (الفراش)، ولا تتحول عنها، أو تحولها إلى دار أخرى، لقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤]. وكان رسول الله ﷺ يغاضب بعض نسائه، فإذا كانت ليلتها بات عندها، ولم يبت عند غيرها، من غير أن يكلمها، ولا ينظر إليها(٣).

هل من حق الزوج ضرب زوجته؟

يحرم على الزوج ضرب زوجته ضربًا مبرِّحًا، شديدًا شاقًّا، إنما أباح الشرع للزوج تأديب زوجته الناشز سيئة الخلق والعشرة التي تتطاول على الزوج، فأمر الله أن يعظه ويذكرها بالله، فإن لم ترجع وأصرت على ذلك،

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣١)، وأحمد (٢٠٠٢٢)، وابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (٣/ ٣٠١)، وابن الملقن في البدر المنير (٨/ ٢٨٩)، وصحح إسناده الألباني في «الإرواء» (٧/ ٩٨)، و«صحيح أبي داود الأم» (٢١٤٢)، وصحيح «الترغيب والترهيب» (١٩٢٩).

(٢) انظر: معالم السنن للخطابي (٣/ ٢٢١).

(٣) انظر: معالم السنن (٣/ ٢٢١)، وعمدة القاري (٢٠/ ١٩١)، مرقاة المفاتيح (٥/ ٢١٢٦).

انتقل إلى المرتبة الثانية، وهي هجرتها في الفراش، فإن لم ترجع، وظلت على نشوزها، انتقل إلى المرتبة الثالثة، وهي الضرب الغير مبرِّح -ولا يضرب الوجه- ليزجرها عن نشوزها، وإلا ماذا عساه أن يفعل مع مثل هذه[١]؟!

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ أي: تركوا النشوز، ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تجنوا عليهن بقول أو فعل[٢].

من حُسن المعاشرة إعانة الرجل زوجته على طاعة الله:

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم].

وقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ رَشَّ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٧٨)، وتفسير الطبري (٨/ ٢٩٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٧٨)، وتفسير البغوي (٢/ ٢٠٨)، وتفسير الطبري (٨/ ٢٩٩).

فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى رَشَّتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»[١].

من فوائد حُسن معاشرة الزوجة:

١- تصبح من خير الناس، قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[٢].

٢- يثمر الألفة والمحبة بين الرجل وزوجته، فيحيا كلاهما في سكينة وطمأنينة.

٣- السلامة النفسية للأبناء، فإذا نشأ الطفل على التواد والتراحم، والتعاطف بين الأبوين، كان له أكبر الأثر في نفسه.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٠٨)، والنسائي (١٦١٠)، وابن ماجه (١٣٣٦)، وأحمد (٧٤٠٤)، وصححه النووي في المجموع (٤/ ٤٦)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود الأم (١٣٠٨) وصحيح النسائي (١٦٠٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، والدارمي (٢٢٦٠)، وصحيح ابن حبان (٤١٧٧)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠٥٢٢)، والبزار (٥١٩٦)، وصححه الألباني في «حقوق النساء في الإسلام» (٤١)، وفي الصحيحة (٢٨٥) قال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢٧- حق الزوج على الزوجة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ**»(١).

الشرح

ذكرنا جملة من حقوق المرأة على زوجها، ووصية رسول الله ﷺ للرجال أن يستوصوا بالنساء خيرًا، فينبغي أن تعلم المرأة أن الشرع كما جعل لها حق على الزوج، جعل له هو أيضًا حق، قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٨٨]. ومن هذه الحقوق:

قوله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ...»:

الفراش: كناية عن الجماع، والكناية عن الأشياء التي يُستحي منها كثيرة في القرآن والسنة، والمعنى: أن الزوج إذا دعا زوجته لحقه الذي أذن الله له فيه فأبت، وامتنعت وهجرة فراشه، فغضب الزوج، لعنتها الملائكة إلى أن تصبح، أو ترجع وترضيه.

ولا يلزم من ذلك أنه يجوز لها الامتناع عن الزوج في النهار، إنما خص الليل بالذكر؛ لأنه مظنّة ذلك، والدليل قول رسول الله ﷺ في رواية لمسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٦).

وفي الحديث حث المرأة على مساعدة الزوج على كسر شهوته؛ ليفرغ فكره للعبادة، وقال العراقي: وفيه إغضاب المرأة لزوجها حتى يبيت ساخطًا عليها من الكبائر، وهذا إذا غضب بحق[١].

وفي الحديث دليل على عظم حق الزوج على زوجته، وهذا في حق الزوج القائم بحق الزوجة، أما إذا نشز، ولم يقم بحقها، فلها الحق أن تقتص منه، وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها، لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ [النمل: ١٢٦][٢].

لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه:

قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَحَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ**»[٣].

قوله ﷺ: «فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ»: معنى هذا: ألا يدخلن

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٢٩٤)، وعمدة القاري (٢٠/ ١٨٤)، وعون المعبود (٦/ ١٢٦)، وفيض القدير (١/ ٣٤٤).

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٢/ ٨٣) بتصرف وتقديم وتأخير.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧)، والنسائي في الكبرى (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٨٠)، وصحيح الترمذي (١١٦٣، ٣٠٨٧)، و«الإرواء» (٧/ ٩٦).

منازلكم أحدًا ممن تكرهونه، ويدخل في ذلك الرجال والنساء، والأقرباء والأجانب، ولا يفهم من هذا الكلام أنه النهي عن زنى، فإن ذلك محرم على من يكرهه الزوج ومع من لا يكرهه، وأيضًا الزنا يترتب عليه الحد[١].

لا تصوم المرأة تطوعًا بغير إذن زوجها:

قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلاَ تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**»[٢].

لأن الزوج له حق الاستمتاع بها في جميع الأوقات، أما إن كان مسافرًا فلها أن تصوم إن شاءت، وأما صيام رمضان أو صيام الواجب، كقضاء ما عليها، من أيام، أو نذر فليس له ذلك -إذا كان الوقت ضيقًا- وهذا مذهب جماهير العلماء[٣].

حفظ المرأة مال زوجها وعرضه عند غيبته:

قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: صالحات في أديانهن، مطيعات لأزواجهن،

---

(١) انظر: المفهم (١٠/ ٨٣)، وشرح النووي على مسلم (٨/ ١٨٣)، شرح سنن ابن ماجه للسيوطي (ص: ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٥)، ومسلم (١٠٢٦).

(٣) انظر: إكمال المعلم (٤/ ١٠٢)، شرح النووي على مسلم (٤/ ١٢٤)، فتح الباري (٩/ ٢٠٧)، والمحلى لابن حزم (٤/ ٤٥٣)، وتحفة الأحوذي (٣/ ٤١٤).

حافظات لهم في أنفسهم وأموالهم[١].

القوامة للرجل على الزوجة:

وقال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ [النساء: ٣٤].

القوام والقيم بمعنى واحد، والقوام أبلغ، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب[٢].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن، والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم. ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم: من سوقهم إليهن مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن[٣].

وقيل: سبب أن القوامة للرجل: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم القيام عليهن بذلك، وقيل: للرجل زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء؛ لأن طبع الرجل غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة.

وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة فيكون فيه معنى اللين

---

(١) انظر: جامع البيان (٨/ ٢٩٦) ت. شاكر.

(٢) انظر: تفسير البغوي (١/ ٦١١).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢٩٠) ت. شاكر.

والضعف، فجعل لهم حق القيام عليهن بذلك...

وقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها[١].

هل طاعة الزوج مطلقة:

الطاعة المطلقة لله تعالى ورسوله، وليس لأحد من البشر الطاعة في معصية خالقه، سلطانًا كان الآمر، أو والدًا، أو أمًّا، أو زوجًا، أو كائنًا من كان.

فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا من الناس في أمر قد صح عنده نهي الله عنه[٢]، ودليل ذلك:

قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»[٣].

ثمرات طاعة الزوج:

١- تمرين القلب على التواضع، ونبذ الكبر والعجب والاستعلاء الذي يحمل بعض النساء إلى معاملة أزواجهن كندٍ لها لا كزوج له حقوق الطاعة في المعروف.

٢- تحقيق القوامة للرجل يثمر صلاح البيت المسلم، ومن ثَمَّ صلاح العالم الإسلامي.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٦٩).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/ ٢١٤)، وشرح مسلم للنووي (١٢/ ٢٢٧)، حاشية السندي على سنن النسائي (٧/ ١٤٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٠) وغيره.

٣- قلة المشاكل والمشاحنات بين الزوجين، فأي عمل له قائدان فسد.

٤- راحة المرأة نفسيًّا؛ لأن الله جعل لكل من الرجل والمرأة وظيفة، فإذا قام الرجل بوظيفة المرأة شقي؛ لأنه لم يخلق لها، والمرأة كذلك إذا قامت بوظيفة الرجل شقيت فإنها لم تخلق لها، وذلك تدبير الرب الحكيم العليم الخبير بما يُصلح العباد.

٢٨- كتمان السِّرِّ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**»(١).

الشرح

كتمان السر من الأخلاق الحميدة التي يجب على المسلم أن يتخلق بها، فإذا أَسَّر إليك أحد سرًّا فلا يحل لك أن تفشي هذا السر، سواء قال لك لا تخبر أحدًا، أو علمت من شخصه أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]، استدل النووي رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية على تحريم إفشاء السر(٢).

قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...»:

في الحديث وعيد شديد لمن يفشي سّر ما يفعله مع زوجته، وكشف حالها فيه، فإنه من كشف العورة، ولا فرق بين كشف العورة بالنظر، أو بالوصوف.

فيحرم على الزوج، إفشاء ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع ووصف تفاصيل ذلك، وما يجري من المرأة من قول أو فعل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٣/ ١٤٣٧)، وغيره.

(٢) انظر: شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٢٣).

فيحرم عليه أن يتكلم مع الناس بما جرى بينه وبينها أو يفشي عيبًا من عيوبها، أو يذكر من محاسنها ما يجب شرعًا أو عرفًا ستره[١].

والرجل والمرأة في الحكم سواء، فلا يحل للمرأة أن تفشي سر ما يجري بينها وبين زوجها، ولو كانت تتكلم مع أمها، أو أختها، أو صديقتها، أو غيرهم.

قال بعض الأدباء: أُريد أن طلاقي امرأتي فقيل له: لِمَ؟ فقال: كيف أذكر عيب زوجتي؟ فلما طلقها. قيل له: لِمَ طلقتها؟ قال كيف أذكر عيب امرأة أجنبية[٢].

تربية الأولاد على كتمان السِّر:

عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَدًا قَالَ أَنَسٌ: وَاللهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ[٣].

فانظر إلى حرص أنس رضي الله عنه مع صغر سنه -على حفظ السر، وحسن تربية أمه -أم سُليم- على هذا الخلق الجم، فلم تلح عليه لمعرفة سر

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٤/ ٦١٤)، وشرح مسلم للنووي (١٠/ ٩)، ومرقاة المفاتيح (٥/ ٢٠٩٣).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/ ٢٠٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨٢) وغيره.

رسول الله ﷺ؛ بل قالت له: «لا تخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا» تأكيدًا وتثبيتًا له على هذه الخصلة الحميدة، والخلق الكريم.

من فوائد حفظ السِّر:

١- بث الثقة بين الأخ وأخيه المسلم، حيث يحفظ سره.

٢- حفظ اللسان من هذه الآفة المحرمة بقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١).

٣- من علامات كمال الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢).

فكما أنك لا تحب أن يفشي سرك أحد، فلا تُفشي أسرار الناس.

٤- امتثال أمر الله تعالى ورسوله بالوفاء بالعهد، وعدم نشر السِّر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

٢٩- النصيحة

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

الشرح

النصح: بذل المودة والاجتهاد في المشورة، والإخلاص فيها، والناصح: الخالص من العسل، وكل شيء خَلَصَ فقد نصح(٢).

قال الخطابي: النصيحة كلمة جامعة، يُعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها(٣).

قوله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ ...»:

فيه حذف تقديره: عماد الدين وقوامه النصيحة، كما يُقال: الحج عرفة، أي: عماد الحج وقوامه وقوف عرفة، والمعنى: فمعظم أركان الدين النصيحة، كأن النصيحة هي جماع الدين وملاكه، لأن من لا نصح عنده وباطنه متلبس بالغش، فليس عند من الدين إلا الاسم(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) انظر: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٥٤٤)، والصحاح للجوهري (١/ ٤١١)، ولسان العرب (٢/ ٦١٥).

(٣) انظر: معالم السنن للخطابي (٤/ ١٢٦).

(٤) انظر: عمدة القاري (١/ ٣٢١)، شرح الأربعين النووية للنووي (ص:١٢)، والشافي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير (٥/ ٥٤٢).

قوله ﷺ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ ...»:

لما بين رسول الله ﷺ للصحابة، أن الدين النصيحة، سألوا لمن؟ فأجاب ﷺ: لله ولكتابه... إلى آخر الحديث.

أما النصيحة لله: معناه: الإيمان به، نفي الشرك عنه، وترك الإلحاد في صفاته -بإنكار الصفات أو تحريفها عن معناه- ووصفه سبحانه وتعالى بصفات الجلال والكمال، وتنزيهه عن النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه من عصاه، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور.

وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه، فإنه تعالى غني عن نصح الناصح، وعن العالمين[1].

قوله ﷺ: «وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ...»:

النصيحة لكتاب الله سبحانه وتعالى هي الإيمان بأنه كلام الله وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من المخلوقات.

ثم تعظيم تلاوته حق تلاوته، وإقامة حروفه في التلاوة، والتصديق بما فيه، وفهم معانيه والعمل به.

أما النصيحة لرسوله ﷺ: فتصديقه والإيمان بما جاء به، وطاعته في أوامره ونواهيه، ونصرته حيًّا وميتًا، بنصر دينه، وتعظيمه وتوقيره وإحياء سنته، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه -

(١) انظر: الكواكب الدراري (١/ ٢١٧)، وإكمال المعلم (١/ ٣٠٧)، والمفهم (٢/ ٩) وفتح الباري (١/ ١٣٨)، وإرشاد الساري (١/ ١٥١).

رضوان الله عليهم-[١].

قوله ﷺ: «وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»:

أما النصيحة للأئمة المسلمين: طاعتهم في الحق ومعونتهم عليه وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن الوجوه، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم.

والنصح لعامة المسلمين: إرشادهم لمصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والعمل، وتنبيه غافلهم، وتعليم جاهلهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع في الدين والدنيا إليهم قدر المستطاع[٢].

وترك النصيحة لهم على الملأ، إنما يكون ذلك بينك وبين أخيك المسلم، فهو أقرب للقبول، وسلامة الصدر من الغل؛ لأنك إذا نصحته على الملأ كشفت عوراته وعيوبه، ولم تستره، وهذا لا يجوز.

وإن لم تكن النصيحة متعلقة بعيبه أو عورته، فقد يظن أنك تريد أن تنتقص منه، فيترتب على ذلك مفاسد كثيرة، بخلاف النصيحة سرًّا بينك وبينه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: فشتان بين من قصده النصيحة، وبين من قصده الفضيحة، ولا تلتبس إحداهما بالأُخرى، إلا على مَنْ ليس من ذوي العقول الصحيحة[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

(٣) انظر: الفرق بين النصيحة والتعيير (ص: ٤١٠)، وموسوعة نضرة النعيم (٨/ ٣٥٠٥).

من فوائد النصيحة:

١- التشبه بالأنبياء، في نصحهم لأممهم، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ [الأعراف].

٢- دليل حب الخير للمسلمين، والحرص على توصيل المنافع إليهم، ودفع المضار عنهم.

٣- سلامة القلب من الشرك، وفساد الاعتقاد، بتحقيق النصح لله ولكتابه.

٤- علامة على صدق محبة النبي ﷺ، بإتباعه وتعظيمه وتوقيره والذبِّ عن شريعته ودينه، بتحقيق النصيحة لرسوله.

٣٠- المسئولية

عَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُـولُ: «كُلُّكُـمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَـا وَمَسْئُولَةٌ عَـنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قَالَ: -وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ- «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

الشرح

وأصل الرعاية: حفظ الشيء، والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وهو تحت نظره، وأصله التنظر، رعيت فلانًا، نظرت إليه(٢).

قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، ...»:

فإن قيل: إذا كان كل منا راعيًا فمن الرعية؟

الرعيـة: أعضاء نفسه وجوارحه، وقواه وحواسه، حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات، فعلًا ونطقًا، واعتقادًا، فجوارحه وقواه

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: التحبير لإيضاح معاني التيسير (٣/ ٧١٧)، وإكمال المعلم (٦/ ٢٢٩)، وعمدة القاري (٦/ ١٩٠).

وحواسه رعيته، والراعي يكون مرعيًّا باعتبار آخر، ككون الشخص مرعيًّا للإمام راعيًا لأهله.

أو أن الخطاب خاص بأصحاب التصرفات والمسئوليات[١].

قوله ﷺ: «الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، ...»:

الإمام راع لمن تحت يده، وهو أعظم الرعاة قدرًا وخطرًا؛ لأنه مسئول عن رعيته، هل عدل فيهم أم جار عليهم وظلمهم؟ وهل نصحهم أو أضاعهم؟ وليس المراد مجرد السؤال؛ بل ليترتب عليه الجزاء من خير شر، ومن أعظم الرعاية حفظ الشريعة، والحكم بها، وتقدمها على الآراء البشرية والأهواء المضلة[٢].

قوله ﷺ: «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، ...»:

ورعاية الرجل أهله: سياسته لأمرهم، وتوفية حقهم في النفقة والكسوة والعشرة، وإعانتهم على القيام بطاعة الله، وترك معصيته وقاية لنفسه، ولهم من النار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم].

والمعنى: يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان، وصدقوا الله ورسوله، اتقوا الله

---

(١) انظر: شرح البخاري للكرماني (٦/ ١٦)، وفتح الباري (١٣/ ١١٣)، وعمدة القاري (٦/ ١٩١)، التنوير شرح الجامع الصغير (٨/ ٢١١)، وإرشاد الساري (٢/ ١٦٨).

(٢) انظر: المصدر السابق.

واعملوا بطاعته واجتناب معصيته، وادفعوا عن أنفسكم وأهليكم نارًا موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة.

ووقاية الزوجات والأولاد من النار بتأديبهم وتعليمهم، وإلزامهم أمر الله تعالى بالترغيب تارة، والترهيب أخرى(١).

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوْج النَّبيّ ﷺ، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجَرِ** -يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ حَتَّى يُصَلِّينَ- **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الآخِرَةِ**» وَقَالَ ابْنُ أَبِي ثَوْرٍ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: «**لَا**» قُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(٣).

والمراد بالضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر، فلا يجوز للأب أن

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٢٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٢)، والسعدي (ص: ٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (٦٧٥٦)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٣/ ٢٣٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦٨)، و«تخريج مشكاة المصابيح» (٥٤٥)، وصحيح سنن أبي داود الأم (٤٩٥).

يضرب أولاده ضربًا مبرحًا، ولا يجوز أن يضربهم ضربًا مكررًا، لا حاجة إليه؛ بل إذا احتاج إليه، مثل ألا يقوم الولد للصلاة إلا بالضرب فإنه يضربه ضربًا غير مبرح، لأن النبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلامهم؛ ولكن لتأديبهم وتقويمهم[١].

قوله ﷺ: «وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، ...»:

رعايتها تدبير أمر البيت، ورعاية الأولاد، وحفظ مال الزوج وعدم إهدار فيما لا ينفع، وعدم الأخذ من ماله إلا إذا أذن لها، وغير ذلك من حقوق الزوج عليها كما بينا في السابق[٢].

وبالجملة فرعايتها تقتضي حفظ بيته وماله وعياله وعرضه.

ورعاية الخادم: حفظ ما تحت يده، والقيام بما يجب عليه من خدمته[٣].

من فوائد الرعاية والمسئولية:

١- مراقبة الله ﷻ لعلمه أنه مسئول أمامه يوم القيامة عن راعيته.

٢- تمرين القلب على الإخلاص لله، فالراعي في كثير من الأوقات والأعمال، لا يراه أحدًا من الناس، وإنما راعيته للرعية ابتغاء رضا الله عنه.

٣- حفظ الدين، وإقامة الدولة بناء على شرع الله تعالى.

٤- قوة المسلمين، بقيام كل راع بما وكل إليه على الوجه الذي أمره ربه به، وبذلك صلاح الدين والدنيا.

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) انظر: باب: حق الزوج على زوجته.

(٣) انظر: الكواكب الدراري (٦/ ١٦)، وإرشاد الساري (٢/ ١٦٨)، والفتح (١٣/ ١١٣).

٥- مهابة العدو من المسلمين، وعدم التجرؤ عليهم حين يراهم أقوياء مترابطين، فما سلطوا علينا إلا بالتفريط في ديننا وضعف إيماننا.

تمَّ بحمد الله تعالى

الفهـــرس

الفهرس

من إصدارات المؤلفة ٣
المقدمة ٤
الباب الأول: جملة من أهم أعمال القلوب ٧
١-الإخلاص ٨
٢- حب الله ورسوله ﷺ وحب المؤمنين ١٢
٣- الخوف ١٦
٤- الرجاء ٢١
٥- الصبر ٢٥
٦- المراقبة ٣٠
٧- التقوى ٣٤
٨- التوكل ٣٨
٩- الرضا ٤٢
الباب الثاني: جملة من أعمال الجوارح ٤٦
١٠- مباني الإسلام ٤٧
١١- الجهاد ٥٩
١٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٦٦
١٣- ذكر الله تعالى ٧٢
الباب الثالث: جملة من أعمال البر والصلة والآداب ٧٧
١٤- بر الوالدين ٧٨

١٥- صلة الرحم ٨٥
١٦- تحريم الغيبة ٩١
١٧- تحريم النميمة ١٠٠
١٨- تحريم الكذب ١٠٥
١٩- تحريم الظلم ١١٠
٢٠- تحريم الحسد والتباغض والتدابر والتهاجر ١١٧
الباب الرابع: جملة من الأخلاق والمعاملات ١٢٢
٢١- حسن الخلق ١٢٣
٢٢- التواضع ١٢٨
٢٣- الرفق ١٣٤
٢٤- الإصلاح بين الناس ١٣٩
٢٥- قضاء حوائج المسلمين ١٤٤
٢٦- الوصية بالنساء ١٤٩
٢٧- حق الزوج على الزوجة ١٥٦
٢٨- كتمان السِّرِّ ١٦٢
٢٩- النصيحة ١٦٥
٣٠- المسئولية ١٦٩
الفهرس ١٧٤